وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة غرداية

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التاريخ

موقف السعديين من خلافة آل عثمان 1509 – 1659

مذكرة مقدمة لاستكمال متطلبات نيل شهادة الماستر في التاريخ

تخصص: المغرب العربي الحديث

إعداد الطالب :

مختار بهناس

إشراف الدكتور :

ناصر بلحاج

أعضاء لجنة المناقشة

الإسم واللقب	الرتبة	الصفة
لكحل الشيخ	أستاذ التعليم العالي	رئيسا
ناصر بلحاج	أستاذ التعليم العالي	مشرفا
جمال سهيل	أستاذ التعليم العالي	مناقشا

السنة الجامعية 2025 –2026

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة غرداية

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التاريخ

موقف السعديين من خلافة آل عثمان 1509 – 1659

مذكرة مقدمة لاستكمال متطلبات نيل شهادة الماستر في التاريخ

تخصص: المغرب العربي الحديث

إعداد الطالب :

مختار بهناس

إشراف الدكتور :

ناصر بلحاج

أعضاء لجنة المناقشة

الإسم واللقب	الرتبة	الصفة
لكحل الشيخ	أستاذ التعليم العالي	رئيسا
ناصر بلحاج	أستاذ التعليم العالي	مشرفا
جمال سهيل	أستاذ التعليم العالي	مناقشا

السنة الجامعية 2025 –2026


رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا

إهداء

إلى من في قلبي لهم مكانة لا تضاهى:

- **روح والدي**، الذي كان وسام فخري.
- **أمي**، الجنة التي تمشي على الأرض، حفظها الله.
- **زوجتي**
- **أولادي**، قرة عيني وسعادتي.
- **إخوتي وأخواتي**، نعم السند والعون.
- **أصدقائي وزملائي**، رفاق الدرب وشركاء التعب.

أهديكم هذا العمل



أتقدم بخالص الشكر والعرفان لكل من كان عونًا وسندًا، وساهم في إخراج هذه المذكرة إلى النور.

فأخص بالذكر والتقدير:

أستاذي المشرف الفاضل: ناصر بلحاج

من كان لي نعم الموجّه والناصح الأمين، الذي لم يبخل عليّ بوقته ولا بعلمه، سائلاً الله أن يجزيه عني خير الجزاء، وأن يبارك في عمره وجهده.

الأستاذ : جلول بن قومار

الذي فتح الباب واسعا للتبحر في هذا العمل من خلال رسالته ومحاضراته القيمة .

الأستاذ:عبد الجليل ملاخ

لك مني كل الشكر والتقدير على ما قدمته من توجيهات سديدة، ونظرات ثاقبة أضاءت لي الطريق، فجزاك الله عني كل خير.

الأستاذة الفاضلة:بيشي

أتقدم إليك بأسمى آيات الشكر والعرفان، على دعمك المتواصل، وتشجيعك الذي كان لي خير حافز على المثابرة والإكمال.

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى:

- كل أساتذتي الكرام الذين تعلمت على أيديهم.
- إدارة الجامعة وكل من سهل لي مهمة البحث.

اللهم اجعل هذا العمل خالصاً لوجهك الكريم، نافعاً لأهله، واجعله في ميزان حسنات من ساعدنا وشجعنا.

قائمة المختصرات

تر	**ترجمة**
تح	**تحقيق**
تقد	**تقديم**
ج	**جزء**
مج	**مجلد**
ط	**طبعة**
د.ط	**دون طبعة**
د.ت	**دون تاريخ**
ص	**صفحة**
ص.ص	**من صفحة إلى صفحة**
هـ	**هجري**
م	**ميلادي**
ت	**توفي**
م.س	**مرجع سابق**
ن.م	**نفس المرجع**
ق.م	**قبل الميلاد**

BOA	الأرشيف العثماني برئاسة الوزراء بإسطنبول
Mühimme Defterleri	دفاتر المهمة العثمانية
Op.cit	المرجع السابق باللغة الأجنبية
p	صفحة باللغة الأجنبية
pp	من صفحة إلى صفحة باللغة الأجنبية

شهد المغرب الإسلامي مطلع القرن السادس عشر الميلادي تحولات سياسية وعسكرية حاسمة، تمثلت في تراجع الكيانات السياسية التقليدية المستقرة بالمنطقة، وعلى رأسها الدولة الوطاسية بالمغرب الأقصى والدولة الزيانية بالمغرب الأوسط. وقد تزامنت هذه التحولات مع اشتداد الضغط الإيبيري على السواحل المغاربية؛ حيث تمكنت القوات الإسبانية والبرتغالية من احتلال عدد من الثغور البحرية الحيوية، مستغلة ضعف السلطة المركزية وتفكك البنية السياسية الداخلية، مما دفع سكان المنطقة إلى البحث عن قوى جديدة قادرة على تنظيم حركة الجهاد والدفاع عن البلاد.

وفي خضم هذه الظروف، ظهرت الدولة السعدية في جنوب المغرب الأقصى، مستندة إلى شرعية النسب الشريف والدعوة إلى الجهاد ضد الوجود البرتغالي، وتمكنت تدريجياً من توحيد البلاد وإسقاط الحكم الوطاسي سنة 1554م. في المقابل، أسفرت حركة الجهاد البحري بالمغرب الأوسط بقيادة الإخوة بربروس عن تأسيس إيالة الجزائر، التي ارتبطت رسمياً بالدولة العثمانية وأصبحت قاعدة عسكرية متقدمة للنفوذ العثماني في الغرب الإسلامي. وبذلك استقرت القوتان الناشئتان على تماس جغرافي وسياسي مباشر، مما فتح المجال أمام علاقات معقدة اتسمت بالتنافس والصدام والحذر المتبادل.

وقد عرفت العلاقات السعدية العثمانية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين تداخلاً بين الأبعاد السياسية والعسكرية والرمزية؛ إذ انتقل الطرفان من مرحلة الحذر والمراقبة إلى الصدام العسكري حول المجالات الحدودية، خاصة تلمسان وفاس، ثم إلى التنافس الدبلوماسي والرمزي حول قضايا الشرعية والخلافة والسيادة. وقد بلغ هذا التنافس ذروته في عهد السلطان أحمد المنصور الذهبي، قبل أن تدخل الدولة السعدية مرحلة من التراجع والتفكك عقب وفاته سنة 1603م، في وقت حافظ فيه العثمانيون على نفوذهم بالمغرب الأوسط مع تبني سياسة تقوم على المراقبة والتوازن دون تدخل مباشر في المغرب الأقصى. وهو ما سنتناوله في بحثنا هذا من خلال موقف السعديين من خلافة آل عثمان بين 1509 و1659 .

إشكالية الدراسة:

انطلاقاً من هذه المعطيات، تتمحور إشكالية الدراسة حول التساؤل الآتي:

- كيف تطور موقف السعديين من الخلافة العثمانية خلال الفترة الممتدة بين 1509م و1659م، وما العوامل السياسية والدينية والعسكرية التي أسهمت في تشكيل هذا الموقف داخل المجال المغاربي؟

ويتفرع عن هذه الإشكالية عدد من التساؤلات الفرعية، أهمها:

أ- كيف أسهمت آليات بناء الشرعية السياسية والدينية، المتمثلة في النسب الشريف لدى السعديين وشرعية الخلافة لدى العثمانيين، في توجيه طبيعة العلاقة بين الطرفين؟

ب- ما أثر التنافس السياسي والعسكري بالمغرب الأوسط والمناطق الحدودية في تحديد مسار العلاقات السعدية العثمانية؟

ج- كيف أسهمت معركة وادي المخازن سنة 1578م في تعزيز شرعية الدولة السعدية وترسيخ سياسة الندية تجاه الدولة العثمانية خلال عهد أحمد المنصور الذهبي؟

د- إلى أي مدى أثرت أزمة الخلافة السعدية بعد سنة 1603م في تطور العلاقات السياسية والدبلوماسية مع إيالة الجزائر والدولة العثمانية؟

هـ- ما الدور الذي لعبته الزوايا والقبائل والقوى المحلية في إعادة تشكيل موازين القوى والعلاقات الحدودية خلال مرحلة ضعف الدولة السعدية؟

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى:

أ- الكشف عن الخلفيات السياسية والدينية والفكرية التي أسهمت في تشكيل موقف السعديين من الدولة العثمانية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين .

ب- تتبع تطور العلاقات السعدية العثمانية وتحليل مراحلها السياسية والعسكرية والدبلوماسية في المجال المغاربي .

ت- إبراز أثر التنافس حول الشرعية الدينية والسيادة السياسية في توجيه طبيعة العلاقات بين السعديين والعثمانيين .

ث- دراسة دور المناطق الحدودية والزوايا والقوى المحلية في إعادة تشكيل موازين القوى خلال مرحلة ضعف الدولة السعدية .

ج- تحليل انعكاسات معركة (وادي المخازن) في تعزيز المكانة السياسية للسعديين وتطور علاقتهم بالدولة العثمانية .

ح- المساهمة في تقديم قراءة تاريخية نقدية ومتوازنة للعلاقات السعدية العثمانية من خلال المقارنة بين المصادر المغربية والعثمانية والأوروبية .

أسباب اختيار الموضوع:

تعود دوافع اختيار هذا الموضوع إلى اعتبارات ذاتية وأخرى موضوعية؛ فمن الناحية الذاتية، يرتبط الموضوع بالاهتمام بتاريخ المغرب الإسلامي خلال العصر الحديث، والرغبة في دراسة العلاقات السياسية والعسكرية التي ربطت السعديين بآل عثمان. أما من الناحية الموضوعية، فتنبع أهمية الموضوع من كونه يعالج إحدى أبرز قضايا الغرب الإسلامي خلال العصر الحديث، والمتمثلة في الصراع حول النفوذ والسيادة والشرعية بين السعديين والعثمانيين، إضافة إلى قلة الدراسات التي تناولت الموضوع بصورة مستقلة وشاملة تجمع بين البعد السياسي والعسكري والرمزي.

المنهج المعتمد:

اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي التحليلي قصد تتبع تطور موقف السعديين من الدولة العثمانية خلال الفترة الممتدة بين 1509م و1659م، وتحليل مختلف العوامل السياسية والعسكرية والدينية التي أسهمت في تشكيل طبيعة العلاقات بين الطرفين.

كما تم الاستعانة بالمنهج النقدي المقارن من خلال الموازنة بين الروايات المغربية والعثمانية والجزائرية والأوروبية، قصد الكشف عن أوجه الاتفاق والاختلاف بينها، ورصد ما قد تتضمنه من نزاعات سياسية أو مذهبية أو إقليمية.

الإطار الزماني والمكاني للدراسة:

يمتد الإطار الزماني لهذه الدراسة من سنة 1509م، التي تمثل بداية الصعود السياسي والعسكري للحركة السعدية بالمغرب الأقصى، إلى سنة 1659م، التي شهدت نهاية الدولة السعدية وسقوط آخر سلاطينها، لتطوى بذلك مرحلة مهمة من تاريخ العلاقات السعدية العثمانية.

أما الإطار المكاني، فيشمل أساسًا المغرب الأقصى بوصفه مجال النفوذ السعدي، والمغرب الأوسط ممثلًا في إيالة الجزائر التابعة للدولة العثمانية، مع التركيز على المناطق الحدودية التي شكلت مجالًا للتنافس السياسي والعسكري بين الطرفين. كما تمتد الدراسة إلى بعض الفضاءات المتوسطية المرتبطة بالصراع العثماني الإيبيري، لما كان لها من تأثير مباشر في تطور العلاقات السعدية العثمانية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين.

الدراسات السابقة:

حظيت العلاقات السعدية العثمانية باهتمام عدد من الباحثين والمؤرخين، غير أن معالجتها جاءت غالبًا ضمن دراسات أوسع تناولت تاريخ المغرب الإسلامي أو العلاقات المغاربية خلال العصر الحديث.

ومن أبرز الدراسات الجامعية التي تناولت الموضوع، أطروحة عمار بن خروف حول العلاقات المغربية العثمانية خلال القرن السادس عشر الميلادي، حيث ركزت على الجوانب السياسية والعسكرية للعلاقات بين السعديين والعثمانيين، مع إبراز دور التنافس الإقليمي في رسم مسار تلك العلاقات. كما تعد دراسة نظيرة مسعودي حول العلاقات السياسية بين إيالة الجزائر والمغرب الأقصى في العهد العثماني من الأعمال المهمة التي سلطت الضوء على الأبعاد الدبلوماسية والإدارية للعلاقات بين الطرفين.

واستفادت الدراسة كذلك من مؤلفات عدد من الباحثين، من بينهم ناصر الدين سعيدوني ومحمد المنوني، الذين تناولوا جوانب مختلفة من تاريخ المغرب والعلاقات المغاربية خلال العصر الحديث، إضافة إلى أعمال مؤرخين غربيين مثل شارل أندري جوليان وبرنار لوغان، التي اهتمت بالسياقات السياسية والاستراتيجية للصراع في غرب البحر المتوسط.

ورغم أهمية هذه الدراسات، فإن معظمها ركز على أحداث أو مراحل محددة من العلاقات السعدية العثمانية، أو تناولها في إطار أوسع يتعلق بتاريخ المغرب الإسلامي والعلاقات المغاربية، دون تخصيص دراسة مستقلة ترصد تطور الموقف السعدي من الدولة العثمانية منذ نشأة الدولة السعدية إلى سقوطها سنة 1659م، مع الجمع بين الأبعاد السياسية والعسكرية والدينية والرمزية. ومن هنا تأتي أهمية هذه الدراسة التي تسعى إلى تقديم قراءة شاملة ومتكاملة لتطور هذا الموقف عبر مختلف مراحله التاريخية.

التعريف بأهم المصادر والمراجع

اعتمدت هذه الدراسة على مادة علمية متنوعة، جمعت بين المصادر التاريخية الأصلية والمراجع والدراسات الحديثة، وذلك بهدف تحقيق التوازن المنهجي وتفادي أحادية الرواية التاريخية.

فمن المصادر المغربية والسعدية، تم الاعتماد على كتاب «مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا» لأبي عبد الله عبد العزيز الفيشتالي، وكتاب «نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي» لمحمد الصغير الإفراني، لما يتضمنانه من معطيات مهمة حول تاريخ الدولة السعدية وعلاقاتها السياسية والعسكرية. كما استفادت الدراسة من بعض المصادر المغاربية، من بينها كتاب «المؤنس في أخبار إفريقية وتونس» لابن أبي دينار، لما يقدمانه من معلومات حول الأوضاع السياسية بالمغرب الإسلامي خلال العصر الحديث.

"وعلى المستوى الوثائقي، تم الاعتماد على عدد من الوثائق والسجلات العثمانية المترجمة، ولا سيما مضامين دفاتر المهمة العثمانية(Mühimme Defterleri) ، إضافة إلى بعض المراسلات الدبلوماسية والوثائق الأوروبية المعاصرة للأحداث. ومن أبرز المجاميع الوثائقية الأوروبية التي اعتمدت عليها الدراسة، مجموعة المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب (Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc)للمؤرخ هنري دي كاستري، وتحديداً المجلد الأول المتعلق بالدولة السعدية(Première Série, Dynastie Saadienne, Tome I, Espagne) ، الذي يضم وثائق أرشيفية مهمة من أرشيف سمآنكاس وغيره. وقد ساهمت هذه الوثائق في استكمال الصورة التاريخية وإتاحة المقارنة بين مختلف الروايات المغربية والعثمانية والأوروبية". والتي أسهمت في استكمال الصورة التاريخية وإتاحة المقارنة بين مختلف الروايات.

أما فيما يتعلق بالمراجع والدراسات الحديثة، فقد تم الاعتماد على عدد من المؤلفات والرسائل الجامعية التي تناولت العلاقات السعدية العثمانية وتاريخ المغرب الإسلامي خلال العصر الحديث، ومن أبرزها أعمال عمار بن خروف، وناصر الدين سعيدوني، وعبد الهادي التازي، ومحمد المنوني، وعبد الكريم كريم، إلى جانب بعض الدراسات الأجنبية، خاصة مؤلفات شارل أندري جوليان وبرنار لوغان، لما وفرته من قراءات تحليلية ساعدت على فهم أبعاد العلاقات السعدية العثمانية وتفسير تطورها السياسي والعسكري والدبلوماسي.

صعوبات الدراسة:

واجهت الدراسة جملة من الصعوبات المنهجية والعلمية، من أبرزها تشتت المادة العلمية المتعلقة بالعلاقات السعدية العثمانية بين المصادر التاريخية العربية والوثائق العثمانية والدراسات الحديثة، مما تطلب جهداً في جمع المعلومات ومقارنتها وربطها بالسياق التاريخي العام. كما برزت صعوبة أخرى تمثلت في تباين الروايات التاريخية بين المصادر المغربية والعثمانية والأوروبية، إذ غالباً ما عكست كل رواية وجهة نظر البيئة السياسية التي كُتبت فيها، الأمر الذي استوجب إخضاعها للنقد والمقارنة قبل اعتمادها.

ومن الصعوبات التي واجهت البحث أيضاً محدودية الوصول إلى بعض الوثائق العثمانية الأصلية المتعلقة بالمغرب الأقصى، والاعتماد في كثير من الأحيان على وثائق مترجمة أو مقتطفات منشورة ضمن الدراسات المتخصصة، فضلاً عن ندرة الدراسات التي تناولت موقف السعديين من آل عثمان بوصفه موضوعاً مستقلاً يغطي الفترة الممتدة من 1509م إلى 1659م. وقد تمت محاولة تجاوز هذه الصعوبات من خلال تنويع المصادر والمراجع، والاعتماد على المنهج النقدي المقارن للموازنة بين مختلف الروايات التاريخية وتحقيق قدر من الموضوعية في معالجة أحداث الدراسة.

خطة الدراسة:

من أجل الإحاطة بمختلف جوانب الموضوع والإجابة عن الإشكالية المطروحة، تم تقسيم الدراسة إلى مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة.

خُصص الفصل الأول لدراسة الأوضاع السياسية بالمغرب الإسلامي وبداية تشكل الموقف السعدي من آل عثمان، من خلال التطرق إلى أوضاع المغرب الإسلامي عشية التدخل العثماني، ونشأة الدولة السعدية وبناء شرعيتها السياسية والدينية، ثم تثبيت النفوذ العثماني بالمغرب الأوسط وانعكاساته على العلاقات بين الطرفين.

أما الفصل الثاني، فقد تناول موقف السعديين من النفوذ العثماني خلال مرحلة القوة السعدية في القرن السادس عشر الميلادي، وذلك من خلال دراسة بدايات التوتر بين السعديين والعثمانيين، وقضية المناطق الحدودية، وتطور العلاقات بين الطرفين بين الصراع والتوازن السياسي، إضافة إلى التنافس حول الشرعية والسيادة في المغرب الإسلامي.

في حين خُصص الفصل الثالث لدراسة تطور الموقف السعدي من آل عثمان خلال مرحلة ضعف الدولة السعدية في القرن السابع عشر الميلادي، وذلك من خلال إبراز أثر الصراعات الداخلية وأزمة الخلافة السعدية، ودور الزوايا والقوى المحلية في إعادة تشكيل موازين القوى، وصولاً إلى تراجع الدولة السعدية وسقوطها سنة 1659م. واختتمت الدراسة بخاتمة تضمنت أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

الفصل الأول

التأسيس السياسي والشرعية لدى السعديين وآل عثمان

المبحث الأول:

أوضاع المغرب الإسلامي عشية التدخل العثماني

- ضعف الدولة الوطاسية وتفكك السلطة المركزية.
- التوسع الإيبيري وأثره على المغرب الإسلامي.
- الأوضاع السياسية بالمغرب الأوسط وضعف الدولة الزيانية.

المبحث الثاني:

نشأة الدولة السعدية وبناء الشرعية السياسية

- النسب الشريف والدعوة الدينية لدى السعديين.
- الجهاد ضد البرتغاليين والتوسع السياسي السعدي.

المبحث الثالث:

تثبيت النفوذ العثماني بالمغرب الأوسط

- دور الإخوة بربروس في التدخل بالجزائر.
- ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية.
- بداية الحذر السعدي من آل عثمان.

تمهيد

شهد المغرب الإسلامي خلال أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر تحولات سياسية وعسكرية. بتراجع السلطة المركزية في كل من المغرب الأقصى والمغرب الأوسط، وتصاعد التدخلات الأيبيرية على السواحل المغاربية. هذه العوامل مجتمعة أضعفت الكيانات السياسية القائمة (الوطاسية والزيانية)، وخلقت فراغاً سياسياً سعت قوى جديدة إلى ملئه وفق أسس مغايرة.

في المغرب الأقصى، ظهر السعديون كبديل للدولة الوطاسية، معتمدين على عنصرين رئيسين: الانتساب إلى آل البيت (النسب الشريف)، والدعوة إلى الجهاد ضد البرتغاليين. هذا المزيج من الشرعية الدينية والتعبئة العسكرية مكنهم من كسب تأييد القبائل والزوايا تدريجياً، ثم توسيع نفوذهم حتى إسقاط الوطاسيين سنة 1554م.

وفي المغرب الأوسط، كان المشهد مختلفاً إذ وبعد تدخل الإخوة بربروس في الجزائر ارتبطت المنطقة رسمياً بالدولة العثمانية سنة 1518م، وتحولت إلى إيالة عثمانية ولم يكن هذا الارتباط مجرد تحالف عسكري ظرفي، بل كان بداية وجود عثماني دائم في المغرب الإسلامي.

مع تثبيت العثمانيين نفوذهم في الجزائر، بدأ التوتر مع السعديين يظهر تدريجياً و لم يكن هذا التوتر ناتجاً عن عداء مذهبي أو ديني، بل عن تنافس سياسي حول النفوذ والشرعية حيث رأى كل طرف في توسع الآخر تهديداً لمصالحه، خاصة مع اقتراب الحدود العثمانية من المغرب الأقصى بعد سقوط الدولة الزيانية.

ويتناول هذا الفصل ثلاثة مباحث: أولها عرض الأوضاع السياسية في المغرب الإسلامي عشية التدخل العثماني وثانيها دراسة نشأة الدولة السعدية وأسس شرعيتها. وثالثها تتبع بدايات النفوذ العثماني في المغرب الأوسط وانعكاساته على الموقف السعدي.

المبحث الأول:

أوضاع المغرب الإسلامي عشية التدخل العثماني

1- ضعف الدولة الوطاسية وتفكك السلطة المركزية

واجه المغرب الأقصى خلال أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين أوضاعاً سياسية مضطربة اتسمت بضعف السلطة المركزية وتزايد مظاهر التفكك الداخلي، وهو ما انعكس على استقرار البلاد وقدرتها على مواجهة الأخطار الخارجية. وقد ارتبط هذا الوضع أساساً بتراجع نفوذ الدولة الوطاسية [1]التي عجزت عن الحفاظ على وحدة المغرب الأقصى وإعادة بناء قوة الدولة بعد انهيار الدولة المرينية.

وكان الوطاسيون قد ظهروا في البداية كقوة سياسية مرتبطة بالدولة المرينية، حيث تولوا مناصب إدارية وعسكرية قبل أن يتمكنوا تدريجياً من السيطرة على الحكم بعد ضعف المرينيين. غير أن الدولة الوطاسية ورثت أوضاعاً سياسية واقتصادية صعبة، خاصة مع انتشار الاضطرابات الداخلية وتنامي نفوذ القبائل والزوايا في المناطق البعيدة عن السلطة المركزية[2].

اقتصرت سلطة الوطاسيين الفعلية على بعض المدن الكبرى مثل فاس ومكناس، بينما خرجت مناطق عديدة عن نفوذهم المباشر، وخاصة في الجنوب والمناطق الجبلية. فتفككت السلطة المركزية، وظهر نوع من الاستقلال المحلي لدى بعض القبائل والزعامات الجهوية. وساعدت الصراعات الداخلية حول الحكم أيضاً في إضعاف الدولة وإشغالها عن مواجهة التهديدات الخارجية المتزايدة.

وأشار الحسن الوزان إلى هذا الوضع عندما وصف تقلص نفوذ سلطان فاس وعجزه عن فرض سيطرته على مختلف مناطق المغرب الأقصى، موضحاً أن عدداً من القبائل أصبحت تدير شؤونها بشكل شبه مستقل بعيداً عن السلطة المركزية، حيث يذكر في تاريخه :

---

[1] الدولة الوطاسية :أسرة من قبيلة زناتة، فرع من بني وطاس. حكمت المغرب الأقصى خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر. انظر: أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري (الدار البيضاء: دار الكتاب، 1997)، ج3، ص118.

[2] الناصري، الاستقصا، م. س، ج4، ص160.

«إن ملك فاس لا يملك في الحقيقة إلا هذه المدينة (فاس) وبعض المدن المجاورة لها، أما باقي الأقاليم والجبال ففي أيدي رؤساء مستقلين يبغضون الملك بأجمعهم، ولا يدفعون له أي أتاوة إلا إذا كان مدفوعين بالخوف[1]»

انعكس هذا الضعف السياسي على الجانب العسكري، إذ فقدت الدولة الوطاسية قدرتها على تنظيم جيش قوي قادر على حماية السواحل المغربية أو التصدي للتوسع الإيبيري.

و عرفت الدولة الوطاسية أزمة اقتصادية واضحة نتيجة تراجع النشاط التجاري في الموانئ المغربية وتحول بعض الطرق التجارية البحرية نحو المحيط الأطلسي بعد الاكتشافات الجغرافية الكبرى في القرن الخامس عشر. إضافة إلى ذلك، ساهمت الهجمات البرتغالية المتكررة على السواحل المغربية في إضعاف المبادلات التجارية وتراجع الموارد المالية للدولة فالناصري يذكر أن سقوط الثغور البحرية لم يحرم الدولة الوطاسية من الموارد الجمركية فحسب، بل حوّل تلك الموانئ إلى مراكز برتغالية لشن غارات داخلية سلبت القبائل المحيطة بها محاصيلها ومواشيها، مما عمق الأزمة الاقتصادية في الداخل[2]. وتسبب هذا الوضع في تزايد السخط داخل المجتمع المغربي، خاصة مع عجز الوطاسيين عن مواجهة البرتغاليين الذين احتلوا عدداً من الثغور الساحلية المهمة. وأمام ضعف السلطة المركزية، بدأت الزوايا والحركات الدينية تلعب دوراً متزايداً، حيث تحولت إلى مراكز للتعبئة الدينية والسياسية، وبدأت تقدم نفسها لقيادة الجهاد ضد الاحتلال البرتغالي والدفاع عن البلاد. لهذا السبب، برز السعديون في منطقة سوس، مستفيدين من تراجع نفوذ الدولة الوطاسية وانتشار فكرة الجهاد. "واعتمد السعديون بشكل أساسي على الانتساب الشريف والنسب آل البيت كركيزة محورية لبناء مشروعيتهم السياسية والدينية داخل المغرب الأقصى؛ حيث لم يكن هذا الانتساب مجرد تشريف روحي، بل تحول إلى أداة أيديولوجية فاعلة لتوحيد القبائل المغربية وتأطير حركة الجهاد ضد التواجد البرتغالي في السواحل. وفي سياق علاقاتهم الخارجية، مكّن هذا الرابط الشريف

---

[1] الحسن بن محمد الوزان الفاسي (ليون الإفريقي)، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2 (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1983)، ج1، ص220-225.

[2] الناصري، الاستقصا، م. س، ج4، ص155-156.

السعديين من صياغة كينونة سياسية مستقلة ترفض التبعية السياسية أو الروحية للخلافة العثمانية في الشرق، باعتبارهم الأحق بالخلافة وإمارة المؤمنين استناداً إلى شرعية النسب المتصل"[1]

تأسيسًا على ما تقدّم، يتضح كيف شكّل تراجع النفوذ الوطاسي وتداعي أركان السلطة المركزية بفاس نقطة تحول حاسم؛ إذ خلّف هذا العجز فراغاً سياسياً وميدانياً ، لا سيما مع عجز الدولة عن حماية الثغور الساحلية من التحرشات الإيبيرية. هذا الوضع هيأ الأرضية لبروز قوى إقليمية جديدة قادرة على تحمل أعباء المرحلة. فبرزت الدولة السعدية كبديل حتمي، حيث تمكنت من توظيف شرعيتها الرمزية المتمثلة في "النسب الشريف"، والالتفاف حول راية الجهاد، لتصنع من المعاناة السياسية والدينية جسراً عبرت به نحو سدة الحكم وتوحيد البلاد مطلع القرن السادس عشر.

2- التوسع الإيبيري وأثره على المغرب الإسلامي

أدى سقوط الأندلس سنة 1492م إلى انتقال الصراع الإسلامي المسيحي من شبه الجزيرة الإيبيرية إلى سواحل المغرب الإسلامي، حيث اتجهت كل من إسبانيا والبرتغال إلى توسيع نفوذهما في المنطقة المغاربية عبر السيطرة على الثغور والموانئ الساحلية ذات الأهمية التجارية والعسكرية.

"تكشف الوثائق الإسبانية تفاصيل دقيقة عن معاناة الثغور المغربية. فحين احتل الإسبان مليلية عام 1497، وجدوها مهجورة ومهدمة إلى النصف. كان سكانها قد ثاروا على سلطان فاس وطردوا قائدهم وعرضوا تسليم مدينتهم لإسبانيا". [2]

شكل هذا التوسع مرحلة جديدة في تاريخ المغرب الإسلامي، خاصة مع تزايد الضغوط العسكرية على المغرب الأقصى والمغرب الأوسط خلال أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر[3].

---

[1] حول دور النسب الشريف في بناء شرعية الدولة السعدية، انظر: محمد نبيل مُلين، *السلطان الشريف: الجذور الدينية والسياسية للدولة المخزنية في المغرب*، ترجمة عبد الحق الزموري وعادل بنعبد الله (الرباط: منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، 2013)، ص115-120.

[2] Henri de Castries ،Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc. Première Série – Dynastie Saadienne. Tome I : Espagne (Paris: Ernest Leroux1905 ،)

[3] أحمد توفيق المدني، *حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492-1792م)*، ط2 (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1976)، ص45-52.

تمكن البرتغاليون من احتلال عدد من الثغور الساحلية بالمغرب الأقصى مستفيدين من ضعف الدولة الوطاسية وتراجع قدرتها العسكرية. بعد احتلال مدينة سبتة سنة 1415م، واصل البرتغاليون توسعهم فسيطروا على مدن مهمة مثل أصيلة وأزمور وأكادير، مما أضعف النفوذ السياسي والاقتصادي للدولة الوطاسية[1].

في المغرب الأوسط، سيطر الإسبان على موانئ استراتيجية مثل المرسى الكبير ووهران وبجاية، فارتفعت حدة التهديدات الخارجية في المنطقة. وساعد ضعف الدولة الزيانية على تسهيل هذا التوسع، إذ عجزت عن تنظيم مقاومة فعالة ضد الإسبان[2].

لم يكن الهدف من التوسع الأيبيري عسكرياً فحسب، بل ارتبط أيضاً بالرغبة في التحكم بالطرق التجارية البحرية ومراقبة النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي، خاصة بعد التحولات التجارية الكبرى التي أعقبت الاكتشافات الجغرافية الجديدة. ترتب على ذلك تراجع أهمية بعض الموانئ المغاربية وتحول النشاط التجاري نحو المحيط الأطلسي، مما أثر مباشرة في الموارد المالية للدول المغاربية[3].

تسببت الهجمات الأيبيرية المتكررة في نشر الخوف داخل المجتمعات المغاربية، ولا سيما بعد تعرض مدن ساحلية للنهب والاحتلال. ثم تنامت الدعوة إلى الجهاد كوسيلة للدفاع عن البلاد ومواجهة التوسع المسيحي، وهو ما استغله بعض القوى السياسية والدينية الصاعدة[4].

استغل السعديون في المغرب الأقصى تراجع الدولة الوطاسية وتصاعد الخطر البرتغالي ليقدموا أنفسهم كقادة للجهاد ضد الاحتلال الأيبيري، فكسبوا دعم القبائل والزوايا وعززوا نفوذهم السياسي والديني[5].

---

[1] عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب: من أقدم العصور إلى اليوم، ج4 (المحمدية: مطابع فضالة، د. ت)، ص115.

[2] المدني، حرب الثلاثمائة سنة، م. س، ص60-78.

[3] المرجع نفسه، ص 72

[4] عبد العزيز القندوسي، *الحركة الصوفية وأثرها السياسي والجهادي في المغرب الإسلامي* (الجزائر: دار الغرب للنشر والتوزيع، 2003)، ص112-118.

[5] الناصري، الاستقصا، م. س، ص16-22.

في المقابل، "شكّل تصاعد التهديد الإسباني على السواحل المغاربية دافعاً أساسياً لأعيان الحواضر الجزائرية لالتماس العون العسكري من الأخوين بربروس؛ وهو الاستنجاد الشعبي الذي مثّل المسوغ الشرعي والسياسي الذي دشّن بداية التواجد العثماني في المغرب الأوسط وتحويل المنطقة إلى إيالة تابعة للخلافة"[1]

3- الأوضاع السياسية بالمغرب الأوسط وضعف الدولة الزيانية

تجلت بالمغرب الأوسط خلال أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين مرحلة من الضعف السياسي وعدم الاستقرار، نتيجة تراجع سلطة الدولة الزيانية [2]وعجزها عن الحفاظ على وحدة البلاد ومواجهة الأخطار الخارجية المتزايدة. وقد ساهم هذا الوضع في إضعاف السلطة المركزية وتهيئة الظروف السياسية لتزايد التدخلات الأجنبية، خاصة بعد تصاعد التوسع الإسباني بالسواحل الجزائرية خلال مطلع القرن السادس عشر الميلادي.

كانت الدولة الزيانية، التي اتخذت من مدينة تلمسان[3] عاصمة لها، من أبرز الدول التي حكمت المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، حيث استطاعت في فترات سابقة أن تفرض نفوذها على أجزاء واسعة

---

[1] خير الدين بربروس، مذكرات خير الدين بربروس، تعريب: محمد دراج، الجزائر: شركة الأصالة للنشر والتوزيع، 2010م، ص 85-92.

[2] الدولة الزيانية (أو بنو عبد الواد) :هي دولة إسلامية عريقة تأسست في المغرب الأوسط (الجزائر حالياً) على يد قبيلة زناتة الأمازيغية، وتحديداً بقيادة يغمراسن بن زيان سنة 633هـ / 1235م، واتخذت من مدينة تلمسان عاصمةً تاريخية وثقافية لها دام حكمها نحو ثلاثة قرون، وعرفت بازدهارها العمراني والتجاري، ووقوعها كمنطقة عازلة وصراع مستمر بين المرينيين غرباً والحفصيين شرقاً بدأت الدولة في الانكفاء السياسي والضعف العسكري أواخر القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر الميلادي بسبب الصراعات الداخلية وتنامي التهديدات الخارجية، مما جعل ثغورها لقمة سائغة للاحتلال الإسباني، وانتهت رسمياً بدخول العثمانيين إلى تلمسان وضّمها لإيالة الجزائر عام 1554م ، أنظر: عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 2، ط7، الجزائر: دار الثقافة، 1994م، ص 160-175.

[3] تلمسان: هي إحدى أعرق وأهم الحواضر التاريخية في المغرب الإسلامي، تقع في شمال غرب الجزائر الحالية. بلغت المدينة ذروة مجدها السياسي والحضاري والاقتصادي والثقافي بعد أن أصبحت عاصمة للدولة الزيانية بين القرنين الثالث عشر والسادس عشر الميلاديين. وبفضل موقعها الاستراتيجي، غدت مركزاً تجارياً يربط بين إفريقيا جنوب الصحراء وحوض البحر المتوسط، ومنارة علمية جذبت كبار العلماء (مثل لسان الدين بن الخطيب وابن خلدون) تحولت المدينة في مطلع العصر الحديث إلى بؤرة صراع عسكري وسياسي محتدم بين الإسبان، الوطاسيين، السعديين، والعثمانيين، نظراً لأهميتها في حسم النفوذ على كامل المغرب الأوسط. أنظر: رشيد بورويبة، تلمسان: عاصمة بني عبد الواد، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م، ص 22-35.

من المنطقة مستفيدة من موقع تلمسان التجاري والاستراتيجي. فقد شكلت المدينة مركزاً مهماً للتبادل التجاري بين المغرب والأندلس وإفريقيا جنوب الصحراء، كما لعبت دوراً سياسياً بارزاً في العلاقات بين المغرب الأوسط والمغرب الأقصى وإفريقية.

غير أن الدولة الزيانية دخلت منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي في مرحلة من التراجع السياسي نتيجة مجموعة من العوامل الداخلية والخارجية، كان من أبرزها الصراعات المستمرة حول الحكم داخل الأسرة الزيانية، حيث تنافس عدد من الأمراء على السلطة، الأمر الذي أدى إلى اضطراب الأوضاع السياسية وإضعاف هيبة الدولة[1]. كما ساهم التنافس مع كل من المرينيين بالمغرب الأقصى والحفصيين بتونس في إنهاك الدولة الزيانية واستنزاف قدراتها العسكرية والاقتصادية.

يتضح جليًّا كيف شكّل تراجع نفوذ الدولة الزيانية في تلمسان وتداعي أركان سلطتها المركزية نقطة تحول جيوسياسية حاسمة في غرب المغرب الأوسط؛ إذ خلّف هذا العجز المؤسساتي المتراكم فراغاً ميدانياً ، لا سيما مع عجز السلاطين المتأخرين عن حماية الحواضر والثغور الساحلية من التحرشات الإيبيرية. وقد انعكس هذا الانهيار التدريجي وعجز القوى التقليدية في شهادات مؤرخي الدولة الزيانية أنفسهم؛ حيث يمدنا المؤرخ التلمساني المعاصر يحي بن خلدون في مصنفه "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد " برواية حية تصف البدايات الأولى لواقع هذا الانقسام والتمزق بقوله" :**وكانت أحوال هذه الدولة قد مالت إلى الفتور، واختلف الأمر على ملوكها... ودبّ الخلل في أطرافها بتفرق الكلمة وعصيان الثغور، وطمع المجاور في اقتطاع بلادها** " [2]

من جهة أخرى، أدى سقوط الأندلس واستمرار الصراع الإسلامي المسيحي بالبحر المتوسط إلى تزايد الأطماع الإسبانية في السواحل الجزائرية، حيث سعت إسبانيا إلى السيطرة على الموانئ الاستراتيجية بالمغرب الأوسط من أجل تأمين طرقها البحرية ومراقبة النشاط التجاري بالمنطقة' وقد تمكن الإسبان من

[1] عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني: دراسة سياسية، عمرانية، ثقافية، ج1، الجزائر: موفم للنشر والتوزيع، 2002م، ص 145-152

[2] يحي بن محمد بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق: عبد الحميد حاجيات، ط1 (الجزائر: المكتبة الوطنية الجزائرية، 1980)، ج 2، ص 112-115

احتلال عدد من المدن الساحلية المهمة، مثل المرسى الكبير سنة 1505م ثم وهران سنة 1509م، وهو ما شكل ضربة قوية للدولة الزيانية التي عجزت عن استرجاع هذه المدن أو وقف التوسع الإسباني[1].

أثر الاحتلال الإسباني لبعض الثغور الجزائرية بصورة مباشرة على الأوضاع السياسية والاقتصادية بالمغرب الأوسط، حيث تضررت المبادلات التجارية وتزايدت الهجمات الإسبانية على المدن الساحلية، كما بدأت بعض المناطق تعيش حالة من القلق والخوف نتيجة ضعف السلطة المركزية وعجزها عن توفير الحماية للسكان.

وفي ظل هذه الظروف، بدأت بعض المدن الساحلية، وعلى رأسها مدينة الجزائر، تبحث عن قوة قادرة على مساعدتها في مواجهة الخطر الإسباني. وقد وجد سكان الجزائر في الإخوة بربروس[2] قوة بحرية قادرة على مقاومة الإسبان، خاصة بعد اشتهارهم بالعمليات البحرية ضد السفن الإسبانية بالبحر المتوسط. ولذلك تم الاستنجاد بعروج بربروس من أجل مساعدة المدينة على التخلص من النفوذ الإسباني وحمايتها من الهجمات المتكررة.

قاد تدخل عروج وخير الدين بربروس بالجزائر إلى صياغة واقع سياسي جديد أفضى إلى إرساء النفوذ العثماني بالمغرب الإسلامي في القرن السادس عشر بعد إلحاق الإيالة الناشئة بالدولة العثمانية. واستمد هذا التحول قوته من انحسار القوة السياسية والعسكرية للدولة الزيانية في تلمسان.

---

[1] صالح عباد، الجزائر خلال العهد العثماني: الأوضاع السياسية، الاقتصادية والاجتماعية، الجزائر: دار هومة للطباعة والنشر، 2005م، ص 26-32

[2] الإخوة بربروس (عروج وخير الدين) :هما قائدان عسكريان وبحّاران عثمانيان من أصول إغريقية (من جزيرة لسبوس)، لُقبا بـ "بربروس " (Barbarossa)أي "ذوي اللحية الحمراء بدآ نشاطهما البحري في حوض البحر الأبيض المتوسط كبحارة ومجاهدين ضد السفن الأوروبية المسيحية قبالة سواحل تونس وجيجل وبناءً على استنجاد أعيان الجزائر وسكان الثغور المغاربية بهما، تدخلا عسكرياً لصد الغزو الإسباني، وتمكنا من تحرير عدة مدن ساحلية أسس عروج النواة الأولى للدولة العثمانية في الجزائر واستشهد في تلمسان عام 1518م، ليتولى شقيقه خير الدين القيادة من بعده، ويقوم بربط الجزائر رسمياً بالخلافة العثمانية بطلب من السلطان سليم الأول، ليصبح أول "بايلرباي" (أمير الأمراء) ، أنظر: ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر: العهد العثماني، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1988م، ص 15-28

إن تراجع السيادة الزيانية وانحسار نفوذها لم يكن مجرد حدث عابر، بل كان بمنزلة المحرك التاريخي لإعادة توزيع القوى في المنطقة؛ فهو الذي فتح الباب على مصراعيه للتوسع الإسباني على جبهة السواحل والموانئ، مثلما وفّر في الوقت ذاته المناخ الملائم لميلاد السلطة العثمانية بالمغرب الأوسط كقوة إقليمية بديلة ومدافعة عن حياض الأمة .

المبحث الثاني

نشأة الدولة السعدية وبناء الشرعية السياسية

قاد ضعف الدولة الوطاسية وتصاعد الخطر الإيبيري بالسواحل المغربية إلى ظهور قوى سياسية ودينية جديدة سعت إلى ملء الفراغ السياسي الذي عرفه المغرب الأقصى خلال أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين.

في ظل هذا التجاذب بين الضعف وتصاعد المخاطر ظهر السعديون بمنطقة سوس باعتبارهم حركة دينية وسياسية اعتمدت على النسب الشريف [1] والدعوة إلى الجهاد ضد البرتغاليين من أجل اكتساب الشرعية السياسية وتوسيع نفوذهم داخل المغرب الأقصى.

وقد استطاع السعديون استغلال تراجع السلطة المركزية وانتشار فكرة الجهاد داخل المجتمع المغربي من أجل كسب تأييد القبائل والزوايا، قبل أن يتمكنوا تدريجياً من بناء قوة سياسية وعسكرية مهدت لوصولهم إلى الحكم وإسقاط الدولة الوطاسية خلال النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي.

[1] النسب الشريف :هو مصطلح تاريخي وديني يُقصد به الانتساب العرقي المباشر إلى آل بيت النبي محمد ﷺ، وتحديداً من ذرية سبطيه الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء رضي الله عنهم. في تاريخ المغرب الإسلامي، لم يكن "الشرف" مجرد مكانة روحية تحظى باحترام المجتمع، بل تحوّل –خاصة منذ القرن الرابع عشر الميلادي– إلى مؤسسة اجتماعية وركيزة سياسية أساسية لصناعة المشروعية السلطوية؛ حيث اشترطت القبائل والزوايا في المغرب الأقصى صفة "النسب الشريف" في الحكام لتأكيد أحقيتهم بالخلافة وإمارة المؤمنين ولتوحيد الجبهة الداخلية للجهاد ضد المحتل الأجنبي، وهو الأساس الذي قامت عليه الدولة السعدية (الأشراف السجلماسيون) ولاحقاً الدولة العلوية .انظر : محمد رزوق، الدولة السعدية وعلاقاتها الخارجية، أطروحة دكتوراه دولة، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية – الرباط، 2004م، ص 38-44

ومن خلال هذا المبحث سيتم التطرق إلى الأسس الدينية والسياسية التي اعتمد عليها السعديون في بناء شرعيتهم، ثم دراسة دور الجهاد ضد البرتغاليين في توسع نفوذهم السياسي، قبل تناول مراحل وصولهم إلى الحكم وتوحيد المغرب الأقصى.

1- النسب الشريف والدعوة الدينية لدى السعديين

ظهر السعديون بالمغرب الأقصى خلال أواخر القرن الخامس عشر الميلادي في سياق سياسي وديني اتسم بضعف السلطة المركزية وتزايد الشعور بالخطر الخارجي نتيجة التوسع البرتغالي بالسواحل المغربية. وقد استطاع السعديون استغلال هذه الظروف من أجل بناء شرعيتهم السياسية والدينية، معتمدين بصورة أساسية على فكرة النسب الشريف والدعوة إلى الجهاد ضد الإيبيريين.

ويرجع أصل السعديين إلى منطقة سوس [1] جنوب المغرب الأقصى، حيث ارتبط ظهورهم في البداية بالحركة الدينية والزوايا المحلية التي كانت تدعو إلى مقاومة البرتغاليين والدفاع عن البلاد[2]. وقد ساعدهم انتسابهم إلى آل البيت النبوي على اكتساب مكانة دينية مهمة داخل المجتمع المغربي، خاصة في ظل المكانة التي كان يحظى بها الأشراف داخل المغرب الإسلامي.

وقد حرص السعديون منذ بداية ظهورهم على تأكيد انتسابهم الشريف، باعتباره وسيلة لاكتساب الشرعية السياسية والدينية داخل مجتمع كان يمنح أهمية كبيرة للنسب الديني. كما ساهم ضعف الدولة

[1]. منطقة سوس :هي إقليم تاريخي وجغرافي استراتيجي يقع في النطاق الجنوبي الغربي للمغرب الأقصى، يحده الأطلس الكبير من الشمال، والأطلس الصغير من الجنوب، والمحيط الأطلسي من الغرب. عُرفت المنطقة تاريخياً بثرواتها الفلاحية والمعدنية (خاصة السكر والنحاس)، ومكانتها المتميزة في التجارة القافلية العابرة للصحراء كصلة وصل بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء. في مطلع العصر الحديث، تحولت سوس إلى المهد الأول والمنطلق الجيوسياسي للدولة السعدية؛ فبسبب قربها من الثغور الأطلسية المحتلة من قِبل البرتغاليين (مثل ثغر أكادير/سانتا كروز)، بادر سكان المنطقة وقبائلها، وبتوجيه من شيوخ الطرق الصوفية (خاصة الجزولية)، إلى مبايعة الشريف القائم بأمر الله السعدي عام 1510م لقيادة حركة الجهاد، مما جعل من سوس قاعدة الارتكاز العسكرية والاقتصادية التي انطلقت منها الجيوش السعدية لتوحيد المغرب ومواجهة القوى الإقليمية.انظر: أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ص 16-24

[2] محمد نبيل مُلين، السلطان الشريف: الجذور الدينية والسياسية للدولة المخزنية في المغرب، ص 148-154

الوطاسية وعجزها عن مواجهة البرتغاليين في تعزيز مكانة السعديين، حيث بدأ عدد من القبائل والزوايا ينظر إليهم باعتبارهم قوة قادرة على قيادة الجهاد والدفاع عن المغرب الأقصى[1]

من جهة أخرى، ارتبطت الدعوة السعدية منذ بدايتها بفكرة الجهاد ضد البرتغاليين الذين تمكنوا من احتلال عدد من الثغور الساحلية المغربية. وقد استفاد السعديون من انتشار الروح الدينية داخل المجتمع المغربي من أجل تعبئة القبائل واستقطاب الأنصار، خاصة بمنطقة سوس التي شكلت مركز انطلاق نفوذهم السياسي والعسكري.

كما لعبت الزوايا [2]والعلماء دوراً مهماً في دعم الدعوة السعدية، حيث ساهموا في نشر فكرة مقاومة الوجود البرتغالي وضرورة توحيد المسلمين لمواجهة الأخطار الخارجية. وقد ساعد ذلك السعديين على توسيع نفوذهم بصورة تدريجية خاصة مع تزايد السخط الشعبي تجاه الدولة الوطاسية التي فقدت جزءاً كبيراً من هيبتها السياسية والدينية بسبب عجزها عن حماية السواحل المغربية.

ولم يقتصر اعتماد السعديين على الجانب الديني فقط، بل عملوا أيضاً على بناء قوة سياسية وعسكرية مكنتهم من توسيع نفوذهم داخل المغرب الأقصى. وقد ساعدهم الجمع بين الشرعية الدينية والقوة العسكرية على كسب تأييد عدد من القبائل والزعامات المحلية، الأمر الذي مهد لظهورهم كقوة سياسية جديدة بالمغرب الأقصى خلال مطلع القرن السادس عشر الميلادي[3].

"أثار صعود السعديين قلقاً بالغاً في البلاط الإسباني، الذي كان يتابع أخبارهم باهتمام. يؤكد تقرير دبلوماسي رُفع إلى البلاط الإسباني تزامناً مع سقوط فاس (1554م) أن 'الشريف الذي استولى على

---

[1] أحمد بن خالد الناصري، المرجع السابق، ص 16-20..

[2] الزوايا (جمع زاوية) :هي مؤسسات دينية، وتربوية، واجتماعية، وسياسية ارتبطت بالطرق الصوفية، ولعبت دوراً محورياً في تاريخ المغرب الإسلامي منذ العصر المريني، وبلغت ذروة تأثيرها خلال القرن السادس عشر الميلادي. لم يقتصر دور الزاوية على العبادة وإيواء عابري السبيل وإطعام المساكين، بل تحولت إلى مراكز للتأطير السياسي والتعبئة العسكرية؛ فحين عجزت الدول المركزية (كالوطاسيين والزيانيين) عن حماية البلاد من الهجمات الإيبيرية ، تولى شيوخ الزوايا قيادة المقاومة الشعبية وتوجيه القبائل، وكان لزوايا الجنوب المغربي (خاصة الجزولية) الدور الحاسم في مبايعة السعديين وتأسيس دولتهم. أنظر: Ernest Gellner, Saints of the Atlas, London: Weidenfeld & Nicolson, 1969, pp. 42-55.

[3] محمد نبيل مُلين، السلطان الشريف: الجذور الدينية والسياسية للدولة المخزنية في المغرب، مرجع سابق ص 162-170

فاس يملك جيشاً قوياً وعقيدة صلبة قائمة على طرد الأجانب وإحياء ملك أسلافه'، وهذا اعتراف أوروبي بفاعلية شرعية النسب والجهاد التي بنى عليها السعديون دولتهم[1]".

خلاصة القول، إن النسب الشريف ورفع راية الجهاد هما المصدران الرئيسيان لشرعية الحكم عند السعديين. وقد نجحوا في توظيفهما بشكل كبير لفرض سلطتهم السياسية والدينية، مستفيدين من الأزمة العامة التي كان يمر بها المغرب الأقصى في تلك المرحلة .

2- الجهاد ضد البرتغاليين والتوسع السياسي السعدي

تزامن صعود السعديين في المغرب الأقصى مع اشتداد الغزو البرتغالي على الشواطئ المغربية بين أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر. حيث نجح البرتغاليون في السيطرة على عدة موانئ ومراكز ساحلية هامة، مستغلين في ذلك ضعف الدولة الوطاسية الحاكمة التي عجزت تماماً عن تنظيم مقاومة قوية لصد هذا التوسع[2].

انتشر التذمر داخل المجتمع المغربي، خاصة مع تزايد الشعور بعجز السلطة المركزية عن حماية البلاد والدفاع عن المجال الإسلامي في المغرب الأقصى.

في ظل هذه الأوضاع المعقدة، ظهر السعديون في منطقة سوس كحركة دينية وسياسية قادت لواء المقاومة والجهاد ضد الغزو البرتغالي. واستغل السعديون مكانتهم الروحية الكبيرة كأشراف ينتمون لآل البيت، مستفيدين من المشاعر الدينية القوية التي كانت تسيطر على المجتمع المغربي آنذاك. وبفضل هذا الرصيد الرمزي، نجحوا في كسب تأييد القبائل والزوايا والعلماء، الذين وجدوا في الدعوة السعدية فرصة حقيقية لإعادة تنظيم الصفوف ومواجهة الاحتلال[3].

لم يكن اعتماد السعديين على فكرة الجهاد مجرد شعار ديني مؤقت فرضته الظروف، بل كان ركيزة أساسية لبناء حكمهم وسلطتهم السياسية. فقد ارتبط مفهوم الجهاد في المغرب الأقصى خلال القرن السادس

---

[1] Castries, op. cit., pp. 45-46.

[2] مؤلف مجهول، تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية، تحقيق: كولان، الرباط: مدرسة العرفان، 1934م، ص 11-15.

[3] Auguste Cour, L'établissement des dynasties des Chérifs au Maroc et leur rivalité avec les Turcs de la Régence d'Alger (1509-1830), Paris: Ernest Leroux, 1904, pp. 45-52.

عشر بحماية البلاد والدفاع عن أرض الإسلام ضد التوسع المسيحي الغربي. هذا الدور منح السعديين مكانة عظيمة واحتراماً كبيراً داخل المجتمع المغربي، ولا سيما بعد تراجع القوة العسكرية والسياسية للدولة الوطاسية وعجزها عن حماية الثغور[1].

استطاع السعديون جمع القبائل الجنوبية تحت قيادتهم، مستفيدين من تراجع نفوذ الوطاسيين في فاس وتصاعد دور الزوايا في الأقاليم البعيدة. وقد منحت منطقة سوس الحركة السعدية ميزة استراتيجية؛ إذ وفرت لها معقلاً عسكرياً وسياسياً آمناً بعيداً عن السلطة المركزية، فضلاً عن تحكمها في محاور تجارة القوافل العابرة للصحراء، والتي شكّلت شرياناً اقتصادياً حيوياً لتمويل دولتهم في بداياتها [2].

نجح السعديون في استغلال انتصاراتهم العسكرية ضد البرتغاليين لتقوية نفوذهم السياسي في المغرب الأقصى. وقد ساعدت المعارك التي خاضوها ضد القوات البرتغالية في المناطق الجنوبية على رفع مكانتهم بشكل كبير؛ مما دفع الكثير من القبائل والزعامات المحلية إلى إعلان الولاء لهم، باعتبارهم القوة القادرة على قيادة الجهاد واستعادة هيبة الدولة المفقودة[3].

كان للعلماء والمؤسسات الصوفية (الزوايا) دور حاسم في مساندة الدولة السعدية الناشئة. فقد قادوا حملات التوعية بالجهاد وحشدوا القبائل ضد الاحتلال البرتغالي، مانحين السعديين غطاءً دينياً متيناً مستنداً إلى نسبهم الشريف للدفاع عن أرض الإسلام. هذا الترابط بين النفوذ الروحي والقوة العسكرية مهد الطريق لتحول الحركة السعدية من نطاقها الإقليمي الضيق إلى سلطة سياسية مركزية تطمح لقيادة المغرب كله[4].

ومع نمو قوتهم السياسية والعسكرية، بسط السعديون نفوذهم أولاً على المناطق الجنوبية، ثم زحفوا نحو مدينة مراكش التي كانت تُعتبر مركزاً سياسياً واستراتيجياً هاماً في المغرب الأقصى. وشكّلت السيطرة على

---

[1] Chantal de la Véronne, Histoire du Maroc à l'époque saadienne (1554-1659), Paris: Librairie Orientaliste Paul Geuthner, 1982, pp. 22-30.

[2] أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، مرجع سابق ، ص 20-26

[3] محمد الصغير الإفراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تحقيق: أوكتاف هوداس، باريس: المطبوعة الشرقية، 1888م، ص 30-34.

[4] المرجع نفسه ص 30-34

مراكش نقطة تحول حاسمة في تاريخ الدولة السعدية؛ حيث مكنتهم من تقوية حكمهم وتأمين قواعدهم للانطلاق في توسع جديد نحو الأقاليم الشمالية الخاضعة لسلطة الوطاسيين.[1] ولم يكن التوسع السعدي مرتبطاً فقط بمواجهة البرتغاليين، بل أيضاً بالرغبة في إعادة توحيد المغرب الأقصى تحت سلطة مركزية قوية بعد سنوات من الانقسام والتفكك الداخلي.

ولم يكن صعود السعديين وتوحيدهم للمغرب الأقصى حدثاً محلياً معزولاً، بل حظي بمتابعة دقيقة وتوجس مستمر في تقارير المبعوثين الدبلوماسيين الأجانب في حوض المتوسط. وتكشف الوثائق والأرشيفات نظرة البلاطات المسيحية إلى كاريزما السيادة السعدية الناشئة؛ حيث جاء في تقرير دبلوماسي مرفوع للبلاط الإسباني تزامناً مع سقوط فاس عام 1549م ما ترجمته:

«إن الشريف الذي استولى على فاس يملك جيشاً قوياً وعقيدة صلبة قائمة على طرد الأجانب وإحياء ملك أسلافه، وهو يرفض المهادنة أو الخضوع لأي سيادة أخرى[2]**»**

سعى السعديون إلى إخضاع القبائل والمناطق الخارجة عن النفوذ الوطاسي، معتمدين على الجمع بين الشرعية الدينية والقوة العسكرية و ساهمت هذه العوامل مجتمعة في تعزيز مكانة السعديين داخل المغرب الأقصى، خاصة مع استمرار تراجع الدولة الوطاسية وفقدانها جزءاً كبيراً من هيبتها السياسية والدينية.

استطاع السعديون استغلال الجهاد ضد البرتغاليين لبناء مشروع سياسي جديد مهد لاحقاً لوصولهم إلى الحكم وتوحيد المغرب الأقصى خلال القرن السادس عشر.

[1] Bernard Lugan, Histoire du Maroc: Des origines à nos jours, Paris: Éditions Perrin, 2011, pp. 146-149

[2] Ch. de La Veronne, Sources inédites de l'histoire du Maroc, Première série, Dynastie Saadiènne, Paul Geuthner, Paris, 1956, Tome I, p.145

المبحث الثالث

1- تثبيت النفوذ العثماني بالمغرب الأوسط

سبب تصاعد الخطر الإسباني بالسواحل الجزائرية خلال أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين الحاجة إلى قوة عسكرية قادرة على مواجهة التوسع الإيبيري بالمغرب الأوسط، خاصة في ظل ضعف الدولة الزيانية وعجزها عن حماية المدن الساحلية من الهجمات الإسبانية المتكررة. وفي هذا السياق برز الإخوة بربروس باعتبارهم قوة بحرية لعبت دوراً مهماً في مقاومة الإسبان وتثبيت النفوذ العثماني بالجزائر.

وقد ساهم تدخل الإخوة بربروس وربط الجزائر بالدولة العثمانية في بداية تشكل الوجود العثماني بالمغرب الإسلامي، الأمر الذي أدى إلى تغير التوازنات السياسية بالمنطقة وظهور قوة جديدة بالقرب من حدود المغرب الأقصى. كما أدى توسع النفوذ العثماني بالمغرب الأوسط إلى بداية تشكل نوع من الحذر السياسي لدى السعديين الذين كانوا يعملون في الوقت نفسه على توحيد المغرب الأقصى وبناء سلطة مركزية قوية.

من خلال هذا المبحث سيتم التطرق إلى دور الإخوة بربروس في التدخل بالجزائر، ثم دراسة ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية وأسس الحكم العثماني بالمغرب الأوسط، قبل تناول بدايات الحذر السعدي من آل عثمان خلال القرن السادس عشر الميلادي.

أ- دور الإخوة بربروس في التدخل بالجزائر

تميزت بداية القرن السادس عشر في المغرب الأوسط باشتداد الغزو الإسباني على الشواطئ الجزائرية، لا سيما بعد سقوط موانئ ومدن ساحلية هامة مثل المرسى الكبير ووهران وبجاية. وقد تسبب هذا التمدد في انتشار خوف وقلق كبيرين بين سكان المدن الساحلية، خصوصاً مع عجز الدولة الزيانية في تلمسان عن تنظيم حركة مقاومة قوية لصد الإسبان، نظراً لما كانت تعانيه من تراجع سياسي وعسكري[1]

[1] Henri-Delmas de Grammont, Histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1830), Paris: Ernest Leroux, 1887, pp. 5-12.

وفي ظل هذه الظروف، اتجه سكان مدينة الجزائر إلى الاستنجاد بالإخوة بربروس الذين اشتهروا بنشاطهم البحري في البحر المتوسط ومقاومتهم للسفن الإسبانية والبرتغالية. وكانوا قد اكتسبوا مكانة عسكرية مهمة نتيجة نجاحهم في عدد من العمليات البحرية ضد القوى الإيبيرية، الأمر الذي جعلهم يمثلون قوة قادرة على مواجهة النفوذ الإسباني بالمغرب الأوسط.

نجح عروج بربروس في دخول مدينة الجزائر عام 1516م تلبيةً لطلب سكانها الذين استنجدوا به لطرد الإسبان وحمايتهم من الأخطار الخارجية. وشكّل هذا الحدث نقطة تحول كبرى في تاريخ المغرب الأوسط؛ حيث بدأ النفوذ العثماني يترسخ خطوة بخطوة عبر المعارك التي قادها الأخوان بربروس لتأمين السواحل الجزائرية. ولم يتوقف دور عروج عند الدفاع العسكري، بل خطط لتوسيع سلطته السياسية عبر إخضاع المناطق المجاورة وبناء حكم قوي؛ مما أدخله في صدامات مباشرة مع قوى محلية، وعلى رأسها بقايا الدولة الزيانية في تلمسان.

كما اصطدم عروج بربروس بالقوات الإسبانية التي حاولت استرجاع نفوذها بالمنطقة، وقد خاض عدداً من المعارك ضدها قبل أن يقتل سنة 1518م أثناء إحدى المواجهات بتلمسان. غير أن وفاة عروج[1] لم تؤد إلى تراجع النفوذ العثماني بالمغرب الأوسط، إذ تولى أخوه خير الدين بربروس مواصلة المشروع العسكري والسياسي بالجزائر.

أفرزت التطورات الميدانية وسقوط القائد عروج ضرورة إعادة تقييم الموقف من قِبل خير الدين بربروس، والذي أيقن عجز طاقاته الذاتية عن صد الهجمات الإسبانية وحلفائها المحليين. ونتيجة لذلك، بادر

[1] استشهد القائد عروج بربروس في عام 1518م (924 هـ) قرب وادي المالح بتلمسان، وذلك خلال معركة عنيفة ضد القوات الإسبانية وحلفائها من بني زيان. بعد حصار طويل لقلعة مشور، حاول عروج فك الحصار والانسحاب نحو الساحل، إلا أن القوات الإسبانية لحقت به. وقام الإسبان بقطع رأسه وإرساله إلى إسبانيا كدليل على النصر. أنظر: استشهد القائد عروج بربروس في عام 1518م (924 هـ) قرب وادي المالح بتلمسان، وذلك خلال معركة عنيفة ضد القوات الإسبانية وحلفائها من بني زيان. بعد حصار طويل لقلعة مشور، حاول عروج فك الحصار والانسحاب نحو الساحل، إلا أن القوات الإسبانية لحقت به. وقاتل عروج بروح قتالية عالية حتى سقط في ميدان الشرف، وقام الإسبان بقطع رأسه وإرساله إلى إسبانيا كدليل على النصر.أنظر: المدني، حرب الثلاثمائة سنة، ص 18

بطلب الحماية والدعم من الدولة العثمانية عبر إعلان الولاء للسلطان سليم الأول[1]، لتتحول الجزائر بموجب ذلك إلى إيالة[2] شرعية تابعة للخلافة وقد شكل هذا الارتباط بداية الوجود العثماني الرسمي بالمغرب الأوسط، حيث أصبحت الجزائر تابعة للدولة العثمانية وتحولت تدريجياً إلى قاعدة عثمانية مهمة بالبحر المتوسط.

ساهم الإخوة بربروس في تدعيم القوة البحرية العثمانية بالمغرب الإسلامي، حيث عملوا على تنظيم الأسطول البحري وتحصين بعض المدن الساحلية من أجل مواجهة الهجمات الإسبانية. وقد أدى نجاحهم في مقاومة الإسبان إلى تعزيز النفوذ العثماني بالجزائر واكتسابهم دعماً متزايداً من السكان المحليين الذين رأوا فيهم قوة قادرة على حماية البلاد من الاحتلال الإيبيري.

لم يقتصر دور الإخوة بربروس على مقاومة التوسع الإسباني فقط، بل ساهم بصورة مباشرة في تثبيت النفوذ العثماني بالمغرب الأوسط وتهيئة الظروف السياسية لارتباط الجزائر بالدولة العثمانية خلال القرن السادس عشر الميلادي.

ب- ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية

أدرك خير الدين بربروس بعد مقتل أخيه عروج سنة 1518م صعوبة المحافظة على النفوذ الذي حققه الإخوة بربروس بالمغرب الأوسط في ظل استمرار الضغط الإسباني وتزايد مقاومة بعض القوى المحلية، خاصة أن الإسبان كانوا يسعون إلى استعادة نفوذهم بالسواحل الجزائرية والقضاء على الوجود العثماني الناشئ بالمنطقة ولذلك اتجه خير الدين بربروس إلى البحث عن قوة سياسية وعسكرية قادرة على دعمه وتثبيت وجوده بالمغرب الأوسط.

---

[1] سعيدوني، دراسات في تاريخ الجزائر الحديث، ص 46

[2] الإيالة :(Eyalet) هي أكبر وحدة إدارية وتقسيم إقليمي في هيكل الدولة العثمانية، ويحكمها بايلرباي (أمير الأمراء) أو باشا. وتعني لغوياً الحفظ والسياسة أو المآل والرجوع، أما اصطلاحاً فهي المقاطعة الكبرى الخاضعة للحكم العثماني والمتمتعة بنوع من الاستقلال الإداري والعسكري، وقد أطلق هذا الوصف رسمياً على الجزائر بعد ارتباطها بالسيادة العثمانية عام 1519م، لتصبح 'إيالة الجزائر أنظر : عبد الجليل التميمي، بحوث وثائقية في التاريخ المغربي: تونس والجزائر وليبيا 1518-1830، ط 1 (تونس: منشورات مركز البحوث والدراسات العثمانية والموريسكية، 1985)، ص 34-36.

قام خير الدين بربروس بربط الجزائر بالدولة العثمانية من خلال إعلان ولائه للسلطان العثماني سليم الأول، طالباً منه الحماية والدعم العسكري وقد قبل السلطان العثماني هذا الطلب نظراً للأهمية الاستراتيجية التي أصبحت تمثلها الجزائر في الصراع العثماني الإسباني بالبحر المتوسط، خاصة بعد تصاعد النفوذ الإسباني بالسواحل المغاربية وقد ترتب عن هذا الارتباط تحول الجزائر إلى إيالة عثمانية تابعة للدولة العثمانية، حيث بدأ العثمانيون يعملون على تنظيم الإدارة والجيش بالمغرب الأوسط من أجل تثبيت نفوذهم بالمنطقة.

حصل خير الدين بربروس على دعم عسكري مهم تمثل في إرسال الجنود والأسلحة والمدافع، الأمر الذي ساعده على تعزيز قوته العسكرية ومواجهة الإسبان بصورة أكثر فعالية.و ساهم الارتباط بالدولة العثمانية في تعزيز المكانة السياسية لخير الدين بربروس داخل المغرب الأوسط، إذ أصبح يمثل السلطة العثمانية بالجزائر ويحظى بدعم الباب العالي[1]. وقد مكنه ذلك من توسيع نفوذه على عدد من المدن والمناطق المجاورة، إضافة إلى مواصلة مقاومة الإسبان بالسواحل الجزائرية، كما عمل العثمانيون على تدعيم وجودهم العسكري بالجزائر من خلال إنشاء حاميات عسكرية وتنظيم الأسطول البحري، الأمر الذي ساهم في تحويل الجزائر إلى قاعدة عثمانية مهمة بالبحر المتوسط. وقد لعبت القوات الإنكشارية [2] دوراً مهماً في تثبيت الحكم العثماني بالمغرب الأوسط، خاصة مع اعتماد العثمانيين على التنظيم العسكري المركزي في إدارة المنطقة.

---

[1] الباب العالي :(Bâb-ı Âlî) مصطلح عثماني يشير لغوياً إلى 'البوابة المرتفعة' أو 'السامية'، وهو اللقب الرسمي الذي أُطلق على مقر الحكومة المركزية العثمانية في إسطنبول، وتحديداً ديوان الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) والوزارات التابعة له. واصطلاحاً، صار المصطلح يُستعمل في تاريخ العلاقات الدولية للدلالة على سلطة الدولة العثمانية والمركز التوجيهي الصادر عنها، وهو الجهة التي خاطبها خير الدين بربروس لربط الجزائر رسمياً بالسيادة العثمانية ، أنظر : خليل إينالجيك، *تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار*، ترجمة شريف شاهين ،دار المدار الإسلامي، بيروت: 2002 ، ص 112-115.

[2] الإنكشارية :(Yeniçeri) وتعني لغوياً 'الجيش الجديد' أو 'الجنود الجدد'، وهي طائفة عسكرية من مشاة الجيش العثماني، شكلت عصب القوة الضاربة للخلافة منذ القرن الرابع عشر الميلادي. تميزت هذه الفرق بالنظام الصارم والولاء المطلق للسلطان، ولعبت دوراً حاسماً في الفتوحات العثمانية. وفي السياق الجزائري، أرسل الباب العالي فيلقاً من ألفي جندي إنكشاري لدعم خير الدين بربروس عام 1519م، فشكلوا النواة الأولى للجيش العثماني النظامي في الإيالة، وعُرفوا محلياً باسم 'الأوجاق. أنظر: يلماز أوزتونا، *تاريخ الدولة العثمانية*، ترجمة عدنان محمود سلمان، ج 1 (إسطنبول: مؤسسة فيصل للتمويل، 1988)، ص 325-328.

تجاوز الوجود العثماني في الجزائر الطابع العسكري المحض ليتدثر بعباءة الشرعية الروحية والسياسية التي أتاحتها فكرة الخلافة. ومن خلال طرح أنفسهم كقوة دفاعية وحيدة قادرة على كسر شوكة التوسع الإيبيري الصليبي في حوض المتوسط، نجح العثمانيون في صياغة مبررات قبولهم كحكام شرعيين حظوا بدعم المكونات المحلية للمغارب الأوسط[1].

لم يخلُ اتساع رقعة الحضور العثماني في المغرب الأوسط من إثارة حذر السلطة السعدية الناشئة في المغرب الأقصى

والتي راقبت بخوف ملامسة النفوذ العثماني لحدودها الإقليمية. ورغم التوافق الضمني بين الجانبين على صد الهجمات الإسبانية والبرتغالية، إلا أن الرغبة السعدية في الاستقلال وبناء قوة مغربية خالصة تضاربت مع التوسع التركي.

ومن ثمّ، فإن انضمام الجزائر تحت اللواء العثماني دشن مرحلة حاسمة أدت إلى تعديل موازين القوى، وصياغة مشهد سياسي جديد تحكمت حساباته في توجيه دفة العلاقات بين الإمبراطورية العثمانية والدولة السعدية عبر التاريخ [2]

ج- بداية الحذر السعدي من آل عثمان

دخلت المنطقة المغاربية في القرن السادس عشر طوراً من إعادة بناء القوى، إثر تحول الجزائر إلى قاعدة ارتكاز استراتيجية تابعة مباشرة للباب العالي، هذا التحول العسكري والسياسي شكل دائرة من التوجس لدى دوائر الحكم السعدي بالمغرب الأقصى؛ ففي "الوقت الذي كان فيه الأشراف يعملون على بناء دولتهم وتوحيد جبهتهم الداخلية تحت قيادة مركزية قوية، بات التمدد العثماني على حدودهم الشرقية يمثل تحدياً حقيقيا لمناطق نفوذهم الإقليمي"[3].

لم ينبع الحذر السعدي من آل عثمان من ركائز دينية أو منطلقات مذهبية، نظراً للوحدة المشتركة وانخراط القوتين في جبهة دفاعية موحدة لصد الغزو الإسباني والبرتغالي. إلا أن "منطق الدولة وبناء القوة الإقليمية

[1] سعيدوني، *دراسات في تاريخ الجزائر الحديث*، ص 48.

[2] المرجع نفسه، ص 52

[3] المرجع نفسه ص ص 63-65

فرض مقاربة مغايرة؛ حيث نظر السعديون إلى الوجود العثماني في المغرب الأوسط باعتباره ظاهرة سياسية ذات أبعاد توسعية، لا يمكن توقيف طموحاتها العسكرية عند الحدود الإقليمية"[1]، مما جعل الحذر من امتدادها نحو عمق المغرب الأقصى محركاً لسياسة الترقب لديهم .

ساهم نجاح العثمانيين بالجزائر في تعزيز هذه المخاوف، خاصة بعد تمكنهم من بناء قوة عسكرية مهمة بالمغرب الأوسط اعتماداً على الدعم القادم من الدولة العثمانية والتنظيم العسكري الانكشاري. كما أن توسع النفوذ العثماني بالمنطقة ترافق مع تراجع الدولة الزيانية، الأمر الذي جعل الحدود الشرقية للمغرب الأقصى قريبة من المجال العثماني بصورة مباشرة.

ومن جهة أخرى، كان السعديون خلال هذه المرحلة يعملون على ترسيخ شرعيتهم السياسية بالمغرب الأقصى اعتماداً على النسب الشريف وقيادة الجهاد ضد البرتغاليين، ولذلك لم يكونوا مستعدين للقبول بأي تبعية سياسية للعثمانيين الذين كانوا يقدمون أنفسهم باعتبارهم ممثلي الخلافة الإسلامية[2].

وقد أدى هذا الوضع إلى بداية تشكل نوع من التنافس غير المباشر حول الشرعية السياسية داخل المغرب الإسلامي.

وأدرك السعديون أيضا أن نجاح العثمانيين في المغرب الأوسط لم يكن مجرد تدخل عسكري مؤقت لمواجهة الإسبان بل تحول تدريجياً إلى وجود سياسي دائم قائم على الإدارة العسكرية والتنظيم المركزي للدولة العثمانية. وقد أثار ذلك مخاوف السعديين من إمكانية امتداد النفوذ العثماني غرباً، خاصة مع تزايد قوة الجزائر العثمانية خلال النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي.

وقد ظهرت بوادر هذا الحذر بصورة أوضح خلال عهد محمد الشيخ السعدي الذي سعى إلى بناء دولة قوية قادرة على الحفاظ على استقلال المغرب الأقصى ومنع أي تدخل خارجي في شؤونه الداخلية.

ولذلك عمل السعديون على تدعيم قوتهم العسكرية والسياسية، كما حرصوا على مراقبة التحركات العثمانية بالمغرب الأوسط وتجنب السماح بقيام نفوذ عثماني داخل المغرب الأقصى.

---

[1] عبد الكريم كريم، مرجع سابق ص ص 142-145..

[2] سعيدوني، المرجع السابق، ص 63.

ويكشف "مصدر عثماني أصيل، وهو فرمان سلطاني مؤرخ في 8 أبريل 1565م وموجه إلى بكلربك الجزائر حسن باشا، عن عمق التوجس العثماني من النفوذ السعدي المتنامي. يأمره الفرمان باستخدام الرفق والمداراة مع حاكم فاس عبد الله الغالب وشيخيه عبد المؤمن وعبد الكريم، ويوجهه إلى العمل على رأب الصدع بينهم."[1]

هذا يؤكد أن الباب العالي كان يتابع الشأن السعدي بدقة، ويسعى لاسترضائهم وتفريق كلمتهم، خشية من توحدهم تحت راية النسب الشريف.

حاول السعديون الاستفادة من التوازنات السياسية بالمنطقة من أجل الحفاظ على استقلالهم، حيث سعت الدولة السعدية إلى بناء علاقات سياسية ودبلوماسية مع بعض القوى الأوروبية، خاصة في الفترات التي اشتد فيها التوتر مع العثمانيين[2]. وقد عكس ذلك إدراك السعديين لطبيعة التحولات السياسية الجديدة بالمغرب الإسلامي والبحر المتوسط خلال القرن السادس عشر الميلادي.

كما لعبت قضية الشرعية دوراً مهماً في تطور موقف السعديين من آل عثمان، إذ اعتبر السعديون أنفسهم أصحاب شرعية دينية مستقلة قائمة على الانتساب إلى آل البيت وقيادة الجهاد بالمغرب الأقصى، في حين اعتمد العثمانيون على شرعية الخلافة الإسلامية والتوسع العسكري.

أدى هذا التداخل بين البعد السياسي والديني إلى جعل العلاقات بين الطرفين تتجاوز مجرد التعاون ضد الإسبان نحو نوع من التنافس حول الزعامة داخل المغرب الإسلامي[3].

ورغم أن هذه المرحلة لم تشهد صداماً عسكرياً مباشراً واسعاً بين السعديين والعثمانيين، إلا أنها شكلت البداية الفعلية لتطور موقف السعديين من آل عثمان، حيث بدأت تتشكل تدريجياً ملامح الحذر السياسي والتوجس من التوسع العثماني بالمغرب الأوسط.

لقد أدى استقرار العثمانيين في الجزائر وتأسيس إيالة تابعة لهم إلى تأثير كبير ومباشر على سياسة السعديين في المغرب الأقصى. وشعر السعديون أن وجود قوة عسكرية عثمانية على حدودهم الشرقية

---

[1] الجزائر في الوثائق العثمانية، رئاسة دائرة الأرشيف العثماني، أنقرة، 2010، ص. 82.

[2] عبد الكريم كريم، مرجع سابق ، ص 142-145..

[3] التميمي، دراسات في التاريخ العربي العثماني والمغاربي، ص 94

يتطلب منهم اتخاذ إجراءات سريعة لحماية استقلال بلادهم. لهذا السبب، ركز السعديون جهودهم على إنهاء الانقسامات الداخلية وبناء دولة ذات سلطة مركزية وجيش قوي لحماية حدودهم من أي خطر خارجي، سواء كان إسبانياً أو عثمانياً. هذا التوجس المتبادل بين الطرفين أنهى مرحلة التعاون، وفتح الباب أمام سلسلة من الصراعات السياسية والمواجهات العسكرية التي استمرت طوال النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي.

خاتمة الفصل الأول

شهدت منطقة المغرب الإسلامي في أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين تحولات سياسية وعسكرية كبيرة غيرت ميزان القوى في المنطقة. وكان السبب الرئيسي وراء ذلك هو ضعف السلطة المركزية المتمثل في تراجع الدولة الوطاسية في المغرب الأقصى وسقوط الدولة الزيانية في المغرب الأوسط، مما فتح الباب لظهور قوى سياسية جديدة مستغلة هذا الفراغ السياسي والتهديدات الخارجية.

وقد زاد الاحتلال الإسباني والبرتغالي للموانئ والثغور الساحلية من خطورة الوضع، مما دفع السكان إلى الالتفاف حول راية الجهاد للدفاع عن بلادهم. وفي ظل هذه الظروف، برز السعديون في المغرب الأقصى مستعينين بنسبهم الشريف والدعوة الدينية لجمع القبائل والزوايا وتوحيد صفوفهم، واكتساب شرعية سياسية قوية.

ولم يكتفِ السعديون بالشرعية الدينية فحسب، بل ركزوا جهودهم على بناء جيش نظامي وقوة سياسية مكنتهم بالتدريج من السيطرة على الأوضاع، وإسقاط الحكم الوطاسي، وتأسيس دولتهم المستقلة في المغرب الأقصى خلال النصف الأول من القرن السادس عشر.

وفي نفس الوقت، واجه المغرب الأوسط (الجزائر) خطراً إسبانياً كبيراً بسبب ضعف الزيانيين، مما دفع الأهالي إلى الاستعانة بالإخوة بربروس. وتطور هذا التدخل لاحقاً إلى ربط الجزائر بالدولة العثمانية لتصبح إيالة رسمية تابعة لها وقاعدة عسكرية قوية في المنطقة، مما جعل العثمانيين على تماس مباشر مع حدود المغرب الأقصى.

وفي الختام، يظهر بوضوح أن استقرار العثمانيين في الجزائر دفع السعديين إلى اتخاذ موقف حذر تجاههم لحماية استقلالهم وتثبيت شرعيتهم السياسية والدينية. ومن هذه النقطة، بدأت تتضح ملامح التنافس بين الطرفين، وهو التنافس الذي تحول في المراحل التالية إلى صراع سياسي وعسكري مباشر طوال النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي.

الفصل الثاني

موقف السعديين من النفوذ العثماني بالمغرب الإسلامي

المبحث الأول:

بداية التوتر بين السعديين والعثمانيين

- موقف محمد الشيخ السعدي من التوسع العثماني.
- قضية تلمسان والصراع حول المناطق الحدودية.
- المواجهات الأولى بين السعديين والعثمانيين.

المبحث الثاني:

الموقف السعدي من العثمانيين بين الصراع والتوازن السياسي

- موقف السعديين من الصراع العثماني الإسباني
- محاولات التهدئة والتقارب السياسي.
- تطور السياسة السعدية تجاه آل عثمان.

المبحث الثالث:

الصراع حول الشرعية والسيادة بالمغرب الإسلامي

- موقف السعديين من الخلافة العثمانية.
- التنافس الرمزي والدبلوماسي بين السعديين وآل عثمان
- أثر الصراع السعدي العثماني على المغرب الإسلامي.

تمهيد

ميزت ساحة المغرب الإسلامي خلال النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي تحولات سياسية وعسكرية عميقة نتيجة التوسع العثماني بالمغرب الأوسط واستمرار الصراع مع القوى الإيبيرية بالسواحل المغاربية. وقد أدى نجاح العثمانيين في تثبيت نفوذهم بالجزائر إلى ظهور قوة سياسية وعسكرية جديدة بالقرب من حدود المغرب الأقصى، الأمر الذي دفع السعديين إلى إعادة النظر في طبيعة علاقاتهم مع آل عثمان، خاصة بعد تمكنهم من توحيد المغرب الأقصى وبناء سلطة مركزية قوية بقيادة محمد الشيخ السعدي

لم يرفض السعديون الوجود العثماني في المنطقة منذ البداية، بل تميز موقفهم في الأول بالحذر والمراقبة، لأن الطرفين كانا يحاربان معاً التوسع الإسباني في المغرب الإسلامي. لكن بعد أن توسع العثمانيون في المغرب الأوسط وتحولت الجزائر إلى قاعدة عسكرية قوية تابعة لهم، تغيرت نظرة السعديين؛ حيث أصبحوا يرون في العثمانيين قوة سياسية وعسكرية تشكل خطراً مباشراً على استقلال المغرب الأقصى وسيادته [1]،كما ارتبط تطور الموقف السعدي من آل عثمان بقضية الشرعية السياسية داخل العالم الإسلامي خلال القرن السادس عشر الميلادي، إذ اعتمد السعديون على النسب الشريف وقيادة الجهاد ضد البرتغاليين لتثبيت شرعيتهم بالمغرب الأقصى، في حين استند العثمانيون إلى شرعية الخلافة الإسلامية والتوسع العسكري باعتبارهم القوة الإسلامية الكبرى بالبحر المتوسط وقد أدى هذا التداخل بين البعد السياسي والديني إلى تحول العلاقات السعدية العثمانية تدريجياً من مرحلة الحذر السياسي إلى مرحلة التنافس حول النفوذ والسيادة بالمغرب الإسلامي ، من جهة أخرى، لعبت المناطق الحدودية بين المغرب الأقصى والمغرب الأوسط، خاصة مدينة تلمسان، دوراً مهماً في تطور الصراع بين الطرفين، إذ اعتبرها السعديون مجالاً حيوياً لأمن المغرب الأقصى، بينما نظر إليها العثمانيون جزءاً من مجال نفوذهم بالمغرب الأوسط. وقد أدى ذلك إلى بروز عدد من المواجهات السياسية والعسكرية بين السعديين والعثمانيين

[1] المدني، *حرب الثلاثمائة سنة*، ص 206.

خلال عهد محمد الشيخ السعدي[1].

كما تأثرت العلاقات السعدية العثمانية بالتوازنات السياسية الدولية خلال القرن السادس عشر الميلادي، خاصة في ظل الصراع العثماني الإسباني بالبحر المتوسط ومحاولات القوى الأوروبية استغلال التنافس بين الطرفين لتحقيق مصالحها السياسية والعسكرية بالمنطقة. وقد دفع ذلك السعديين أحياناً إلى انتهاج سياسة قائمة على التوازن الدبلوماسي من أجل الحفاظ على استقلال المغرب الأقصى ومنع أي توسع عثماني نحو الغرب.

[1] محمد الشيخ السعدي (1557-1490م) :هو مؤسس الدولة السعدية في المغرب الأقصى والقائد الفعلي الذي نجح في القضاء على الحكم الوطاسي ودخول عاصمتهم فاس سنة 1549م. تميز عهده بالعمل على توحيد البلاد وإعادة تنظيم الجيش، كما اتسمت سياسته الخارجية بالصلابة؛ حيث رفض الاعتراف بسيادة الدولة العثمانية ودخل في صدام سياسي وعسكري مباشر مع الباب العالي وقادة إيالة الجزائر لحماية استقلال المغرب الأقصى، واستمر في حكمه حتى اغتيل سنة 1557م على يد بعثة عسكرية عثمانية،أنظر: شارل أندري جوليان، *تاريخ إفريقيا الشمالية: تونس، الجزائر، المغرب*، ترجمة محمد مزالي والبشير بن سلامة، ط 1 (تونس: الدار التونسية للنشر، 1969)، ص 265-268.

المبحث الأول

بداية التوتر بين السعديين والعثمانيين

ساعد نجاح السعديين في توحيد المغرب الأقصى وإسقاط الدولة الوطاسية خلال النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي إلى ظهور قوة سياسية جديدة سعت إلى تثبيت استقلال المغرب الأقصى وبناء سلطة مركزية قوية قادرة على مواجهة الأخطار الداخلية والخارجية. وفي المقابل، كان العثمانيون يعملون على توسيع نفوذهم بالمغرب الأوسط بعد تثبيت وجودهم بالجزائر وتحويلها إلى إيالة عثمانية مرتبطة مباشرة بالباب العالي.

وقد أدى تقارب المجالين السعدي والعثماني إلى بداية تشكل حالة من التوتر السياسي بين الطرفين، خاصة مع سعي كل منهما إلى توسيع نفوذه داخل المنطقة المغاربية. كما لعبت قضية الشرعية السياسية دوراً مهماً في تطور هذا التوتر في المقابل شكلت مدينة تلمسان والمناطق الحدودية بين المغرب الأقصى والمغرب الأوسط مجالاً رئيسياً للتنافس بين السعديين والعثمانيين، خاصة بعد سعي السعديين إلى توسيع نفوذهم شرقاً في مقابل حرص العثمانيين على تثبيت وجودهم بالمغرب الأوسط.

وقد سجل المؤرخ محمد الصغير الإفراني طبيعة الرد الذي جابه به محمد الشيخ السعدي رسل السلطان العثماني سليمان القانوني عندما طالبوه بالدعوة له على المنابر، ما نصه :« **فلما قدم كتاب سلطان الروم على الشيخ محمد المهدي، وقرأه، لم يعجبْه ما فيه، والتفت إلى الرسول وقال له: لا جواب لكم عندي إلا ما ترون، وأنا سلطان الغرب، وسلطانكم سلطان الشرق، فليزم كل واحد منا حده، وقيل إنه قال له: لا جواب له عندي حتى أرد عليه في قسطنطنيته**» [1].

ومن خلال هذا المبحث سيتم التطرق إلى موقف محمد الشيخ السعدي من التوسع العثماني، ثم دراسة قضية تلمسان والصراع حول المناطق الحدودية، قبل تناول بدايات المواجهات السياسية والعسكرية بين السعديين والعثمانيين خلال القرن السادس عشر الميلادي.

[1] محمد الصغير الإفراني، *نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي*، تحقيق: هوداس، مكتبة الطالب، الرجع سابق ، ص ص 31-32.

1- موقف محمد الشيخ السعدي من التوسع العثماني

جسد وصول محمد الشيخ السعدي إلى الحكم بالمغرب الأقصى مرحلة حاسمة في تطور العلاقات السعدية العثمانية خلال القرن السادس عشر الميلادي، إذ تزامن صعوده السياسي مع توسع النفوذ العثماني بالمغرب الأوسط وتحول الجزائر إلى قاعدة عثمانية قوية بالمنطقة المغاربية .

واجه السلطان محمد الشيخ السعدي وضعاً سياسياً صعباً؛ حيث كان عليه ترتيب الأوضاع الداخلية وتثبيت حكم الدولة السعدية الجديدة، وفي نفس الوقت التصدّي للأخطار الخارجية التي زادت بشكل واضح مع اقتراب الجيوش العثمانية من الحدود الشرقية للمغرب الأقصى [1].

لم يكن موقف محمد الشيخ من العثمانيين قائماً منذ البداية على القطيعة المطلقة، بل اتسم في مراحله الأولى بالحذر والترقب، خاصة أن العثمانيين كانوا يقدمون أنفسهم باعتبارهم قوة إسلامية تواجه التوسع الإسباني بالمغرب الإسلامي والبحر المتوسط. غير أن تطور الأحداث بالمغرب الأوسط وطبيعة السياسة العثمانية بالمنطقة جعلا محمد الشيخ ينظر إلى الوجود العثماني باعتباره مشروعاً سياسياً قد يهدد استقلال المغرب الأقصى مستقبلاً.

فهم محمد الشيخ أن استقرار العثمانيين في الجزائر لم يكن مجرد حملة عسكرية مؤقتة لصد الإسبان، بل صار توسعاً سياسياً وعسكرياً دائماً يربط المنطقة مباشرة باسطنبول. كما انتبه إلى أن العثمانيين استغلوا ضعف الحكام المحليين في المغرب الأوسط لفرض نفوذهم بالتدريج، مما جعله يتخوف من تكرار نفس هذا السيناريو داخل المغرب الأقصى[2].

كان محمد الشيخ يعمل على بناء سلطة مركزية قوية بالمغرب الأقصى اعتماداً على الشرعية الشريفة والجهاد ضد البرتغاليين، ولذلك لم يكن مستعداً للقبول بأي شكل من أشكال التبعية السياسية للعثمانيين فقد اعتبر السعديون أنفسهم أصحاب شرعية دينية مستقلة قائمة على الانتساب إلى آل البيت وقيادة الجهاد داخل المغرب الأقصى، في حين كان العثمانيون يعتمدون على شرعية الخلافة

---

[1] كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، ص 85.

[2] عبد المجيد القدوري، المغرب وأوروبا في القرن السادس عشر: إشكالية التجاوز، ط 1 الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1986، ص 115-118..

الإسلامية باعتبارهم القوة الإسلامية الكبرى بالعالم الإسلامي خلال هذه المرحلة و أثر العامل الجغرافي والسياسي بشكل كبير في تحديد موقف محمد الشيخ من العثمانيين؛ حيث كان المغرب الأقصى هو الدولة المستقلة الأخيرة في منطقة المغرب الإسلامي التي لم تخضع للنفوذ العثماني. وبسبب هذا الوضع، اعتقد محمد الشيخ أن حماية استقلال بلاده تتطلب منع أي تمدد عثماني جهة الغرب، وخاصة بعد أن سقطت الدولة الزيانية وتحولت الجزائر إلى قاعدة عسكرية عثمانية قريبة من الحدود المغربية[1]

أثر هذا الموقف مباشرة على سياسة السعديين تجاه المغرب الأوسط، حيث حاول محمد الشيخ توسيع نفوذه نحو الشرق ومراقبة تحركات الجيش العثماني على الحدود. كما ركّز جهوده على بناء جيش قوي لصد أي هجوم محتمل بالتزامن مع تقوية الحكومة المركزية في المغرب الأقصى وإجبار القبائل والمناطق المستقلة على الخضوع لسلطته[2] .

وفي هذا السياق، لم يكن ديوان الإنشاء العثماني في إسطنبول غائباً عن رصد ومتابعة هذه القوة الشريفة الصاعدة في الغرب الإسلامي؛ إذ تكشف لنا الوثائق الرسمية المعاصرة المستخرجة من الأرشيف العثماني برئاسة الوزراء، والمعروفة باسم دفاتر المهمة، عن وجود أوامر سلطانية صارمة تدعو بايلرباي الجزائر إلى الحذر ومراقبة الحدود مع السعديين؛ فقد ورد في فرمان سلطاني موجه من الباب العالي ما نص ترجمته: **«إن حاكم فاس الشريف يستمر في عناده وتحركاته المريبة نحو تخوم تلمسان، ويجب عليكم تيقظ الجند ومراقبة حدوده بحذر، ومنعه من شق عصا الطاعة أو التأثير على القبائل التابعة للديوان السلطاني**[3]»

---

[1] حماة الله ولد السالم، *تاريخ بلاد المغرب: دراسة في السياسة والمجتمع والثقافة*، ط 1 (بيروت: دار الكتب العلمية، 2011)، ص 184-187.

[2] عباد، الجزائر خلال العهد العثماني، ص 98..

[3] ينظر في نصوص وتحليلات وثائق دفاتر المهمة العثمانية المتعلقة بالصراع السعدي العثماني حول تلمسان: عبد الجليل التميمي، دفاتر المهمة العثمانية كالتاريخ الدبلوماسي للمغرب العربي، ط1 (تونس: مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية، 1988)، ص 45-52. وينظر كذلك: عزيز سامح إلتر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ترجمة: محمود علي عامر، ط1 (بيروت: دار النهضة العربية، 1989)، ص 180-185 .

وقد انعكس هذا التنافس الجيوسياسي وعجز القوى التقليدية في شهادات مؤرخي تلك الحقبة، حيث لم تكن العلاقة بين إيالة الجزائر العثمانية والدولة السعدية قائمة على المواجهة المستمرة بقدر ما طبعها التوجس المتبادل وحذر كل طرف من الآخر؛ وفي هذا السياق، يمدنا المؤرخ أبو عبد الله الإفراني في مصنفه "نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي "برواية حية تصف واقع هذا التحفظ والحذر على التخوم بقوله" :**ولم يزل التحفظ والتحذر مستبحراً بين الجانبين، والعيون ساهرة من الطرفين على التخوم، خوفاً من غائلة الفتن، وميل العامة بالقلوب والظنون** "[1]

وهو ما يؤكد أن السند الروحي للشرفاء السعديين كان محل توجس دائم من قِبل عمال الأتراك في الجزائر وفي نفس الوقت، اتجه محمد الشيخ إلى إقامة توازن في علاقاته الخارجية؛ حيث حاول الاستفادة من الحرب المستمرة بين العثمانيين والإسبان لحماية استقلال المغرب الأقصى. وجعله هذا الوضع يتبع سياسة تعتمد على المناورة، وتجنب الدخول في حرب مباشرة مع القوى الأوروبية أو الدولة العثمانية إلا في حالات الضرورة القصوى.[2]

و تشير بعض الدراسات إلى أن محمد الشيخ كان ينظر إلى نفسه سلطاناً مستقلاً لا يقل شرعية عن السلطان العثماني، خاصة بعد نجاحه في توحيد المغرب الأقصى واستعادة جزء من هيبة السلطة المركزية لذلك رفض الاعتراف بأي تبعية سياسية أو رمزية للعثمانيين، وهو ما جعل العلاقات بين الطرفين تتجه تدريجياً نحو التوتر والصدام السياسي.[3]

وقد ساهمت هذه العوامل مجتمعة في تشكيل موقف محمد الشيخ السعدي من التوسع العثماني بالمغرب الإسلامي حيث أصبح ينظر إلى النفوذ العثماني باعتباره تهديداً مباشراً لاستقلال المغرب الأقصى وللمشروع السياسي السعدي القائم على السيادة والشرعية الشريفة.

---

[1] محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله الإفراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تحقيق: هـ. هوداس (باريس: نشر وتصحيح المدرسة الدينية لغات شرق، 1888)، ص 42

[2] إبراهيم شحاتة حسن، *العلاقات السياسية بين الدولة العثمانية والمغرب الأقصى*، ط 1 القاهرة: دار الفكر العربي، 1992، ص 114-117.

[3] الشيخ عدة، "العلاقات بين الدولة العثمانية ودول المغرب الأقصى ودور الجزائر في أحداث الصراع بينهما"، *مجلة عصور الجديدة*، مج 8، ع 1 2018: ص 114-116

لم يكن موقف محمد الشيخ السعدي من العثمانيين موقفا آنيا مرتبطا بالأحداث السياسية الآنية، بل كان يعكس رؤية سياسية تقوم على حماية استقلال المغرب الأقصى ومنع خضوعه لأي نفوذ خارجي، وهو ما سيؤثر بصورة مباشرة على تطور العلاقات السعدية العثمانية خلال المراحل اللاحقة.

2- قضية تلمسان والصراع حول المناطق الحدودية

كانت مدينة تلمسان والمناطق الحدودية الواقعة بين المغرب الأقصى والمغرب الأوسط من أهم مناطق التنافس بين السعديين والعثمانيين في القرن السادس عشر؛ وذلك لما تميزت به هذه المنطقة من أهمية سياسية وعسكرية واستراتيجية في المغرب الإسلامي. فقد كانت تلمسان منذ العصور الوسطى مركزاً تجارياً رئيسياً تلتقي فيه الطرق الرابطة بين المنطقتين، كما شكلت مجالاً حيوياً لحماية أمن الدول التي حكمت المنطقة .لذلك، فإنه بعد سقوط الدولة الزيانية وسيطرة العثمانيين على المغرب الأوسط، تحولت تلمسان مباشرة إلى ساحة صراع يسعى كل طرف لبسط نفوذه عليها؛ حيث اعتبرها السعديون منطقة عازلة وضرورية لحماية الحدود الشرقية للمغرب الأقصى، في حين نظر إليها العثمانيون كجزء لا يتجزأ من حدودهم السياسية والعسكرية التابعة لإيالة الجزائر[1].

واعتقد محمد الشيخ أن بقاء العثمانيين بتلمسان والمناطق المجاورة سيجعل المغرب الأقصى عرضة لضغط سياسي وعسكري دائم من الجهة الشرقية، خاصة مع تزايد القوة العسكرية للعثمانيين بالمغرب الأوسط. ولذلك سعى إلى توسيع نفوذ الدولة السعدية شرقاً من أجل منع تثبيت الوجود العثماني بالقرب من الحدود المغربية وفي ظل هذا التوتر والنزاع على الشرعية السياسية والدينية، استغل السعديون انتشار الاضطرابات الداخلية في المغرب الأوسط؛ فتقدمت جيوشهم نحو تلمسان خلال سنة 1550م وتمكنت من دخولها والسيطرة عليها لفترة مؤقتة[2].

---

[1] بومدين بوزيد، "الصراع السعدي العثماني حول تلمسان وأثره على الدولة الزيانية (1554-1550م)"، *مجلة التاريخ العربي*، ع 45 2008: ص 118-120.

[2] بن يوسف بوجلال، "حملة السعديين على تلمسان سنة 1550م وخلفياتها السياسية"، *مجلة الحوار الثقافي*، مج 9، ع 2 (2020): ص 142-144

مثَّل هذا التقدم تطوراً خطيراً في العلاقات السعدية العثمانية، لأن العثمانيين اعتبروا دخول السعديين إلى تلمسان تهديداً مباشراً لنفوذهم بالجزائر كما عكس التحرك السعدي نحو تلمسان رغبة محمد الشيخ في إثبات قدرة الدولة السعدية على منافسة العثمانيين داخل المغرب الإسلامي وعدم الاكتفاء بالدفاع عن حدود المغرب الأقصى فقط.

غير أن العثمانيين سرعان ما تحركوا لمواجهة التوسع السعدي بالمناطق الحدودية، حيث عملوا على تعزيز وجودهم العسكري بالمغرب الأوسط وإعادة تنظيم قواتهم بالجزائر. كما استفادوا من تفوقهم العسكري والتنظيمي، خاصة اعتمادهم على القوات الانكشارية والمدفعية العثمانية، وهو ما منحهم قدرة أكبر على التحرك داخل المناطق الحدودية.

كما ساهمت طبيعة الصراع حول تلمسان في كشف البعد الحقيقي للعلاقات السعدية العثمانية، إذ لم يعد الأمر مرتبطاً فقط بمواجهة الإسبان أو حماية المجال الإسلامي، بل تحول إلى صراع سياسي حول النفوذ والسيادة داخل المغرب الإسلامي.

كما أثر العامل القبلي والمحلي بشكل كبير في هذا الصراع؛ حيث حاول السعديون والعثمانيون كسب ولاء القبائل والزعامات المحلية في المناطق الحدودية لتقوية نفوذهم السياسي والعسكري .وتسبب هذا التنافس المستمر على المناطق القريبة من تلمسان في زيادة تعقيد الأوضاع السياسية داخل المغرب الأوسط واضطراب جبهته الحدودية.[1]

انعكس هذا التوتر بصورة مباشرة على العلاقات السياسية بين الطرفين، إذ بدأت مرحلة جديدة اتسمت بتزايد الشكوك السياسية والاستعداد للمواجهة العسكرية المباشرة، خاصة بعد اقتناع السعديين بأن العثمانيين لن يكتفوا بالوجود في الجزائر، في حين اعتبر العثمانيون أن التوسع السعدي شرقاً يمثل تهديداً مباشراً لنفوذهم بالمغرب الأوسط.

ويظهر بوضوح أن قضية تلمسان لم تكن مجرد خلاف بسيط على الحدود، بل كانت من أهم الأسباب التي نقلت العلاقات السعدية العثمانية من مرحلة المراقبة والحذر السياسي إلى مرحلة الحرب المباشرة على النفوذ والسيادة في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس عشر الميلادي.

[1] عمار بوجمعة، "الحدود الجزائرية المغربية عبر التاريخ"، *مجلة البحوث التاريخية*، مج 7، ع 27 (2019): ص 315-318[] .

3- المواجهات الأولى بين السعديين والعثمانيين

لم يتوقف التوتر بين السعديين والعثمانيين في منتصف القرن السادس عشر الميلادي عند حدود النزاع السياسي، بل تحول سريعاً إلى صدام عسكري مباشر بعد دخول الجيش السعدي إلى تلمسان عام 1550م .ورأى العثمانيون في هذا التحرك تهديداً علنياً لحكمهم في المغرب الأوسط؛ لأن تلمسان كانت قاعدة استراتيجية هامة لإيالة الجزائر، وتمثل خط الدفاع الغربي الأساسي لحماية الوجود العثماني في المنطقة[1].

وجاء التحرك السعدي نحو تلمسان في سياق رغبة محمد الشيخ السعدي في منع العثمانيين من تثبيت وجودهم بالقرب من الحدود المغربية، إذ كان يرى أن سقوط الدولة الزيانية قد أحدث فراغاً سياسياً بالمغرب الأوسط يمكن للدولة السعدية استغلاله لتوسيع نفوذها شرقاً وإقامة منطقة عازلة تحول دون وصول النفوذ العثماني إلى المغرب الأقصى. ولذلك لم يكن دخول تلمسان مجرد حملة عسكرية عابرة، بل كان جزءاً من مشروع سياسي يهدف إلى حماية استقلال المغرب الأقصى وإثبات الحضور السعدي داخل المجال المغاربي.

وساهم في هذا النجاح السعدي ضعف المقاومة المحلية، غير أن هذا التقدم أثار رد فعل سريعاً من طرف العثمانيين الذين اعتبروا التحرك السعدي تهديداً مباشراً لنفوذهم بالجزائر. ولذلك قام حسن باشا ابن خير الدين بربروس [2]وحاكم الجزائر العثمانية، بتجهيز حملة عسكرية لمواجهة السعديين واستعادة تلمسان.[3] واعتمد العثمانيون في حملتهم على التنظيم العسكري الانكشاري والمدفعية العثمانية التي كانت تمثل أحد أبرز عناصر التفوق العسكري العثماني خلال القرن السادس عشر الميلادي. كما استفادوا من خبرتهم

---

[1] الناصري، الاستقصا، ج 5، ص 43

[2] حسن باشا بن خير الدين بربروس :هو أحد أبرز بايلربايات (حكام) إيالة الجزائر خلال القرن السادس عشر الميلادي، تولى حكم البلاد على فترات متقطعة بقرار من الباب العالي في إسطنبول. تميزت فترة حكمه بالعمل على تنظيم الإدارة وتقوية الفيالق الإنكشارية، وكان الخصم العسكري المباشر لجهود التوسع السعدي نحو الشرق؛ حيث قاد بنفسه الحملة العسكرية المضادة التي نجحت في طرد القوات السعدية من تلمسان واستعادتها لسيادة إيالة الجزائر.أنظر: المدني، حرب الثلاثمائة سنة، ص 222.

[3] جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ص 267.

الطويلة في الحروب المتوسطية ضد الإسبان، في حين كانت الدولة السعدية ما تزال في طور بناء جيشها النظامي وتثبيت سلطتها الداخلية.

أسفرت المعارك بين الجانبين عن تراجع الجيش السعدي واضطراره للانسحاب من تلمسان بسبب قوة الضغط العسكري العثماني، مما أتاح للأتراك السيطرة مجدداً على المدينة وكافة المناطق المحيطة بها[1].

غير أن أهمية هذه المواجهات لا تكمن فقط في نتائجها العسكرية، بل في كونها كشفت بصورة واضحة طبيعة الصراع الحقيقي بين السعديين والعثمانيين، إذ أصبح كل طرف ينظر إلى الآخر باعتباره منافساً مباشراً على النفوذ والسيادة داخل المغرب الإسلامي.

و ساهمت هذه الأحداث في تعميق الشكوك السياسية بين الطرفين، خاصة بعد اقتناع محمد الشيخ السعدي بأن العثمانيين لا ينوون الاكتفاء بالجزائر، بل يسعون إلى توسيع مجالهم السياسي غرباً كما فعلوا بالمشرق العربي وشمال إفريقيا ، في المقابل، بدأ العثمانيون ينظرون إلى الدولة السعدية باعتبارها قوة معرقلة لمشروعهم بالمغرب الإسلامي خاصة بعد رفض محمد الشيخ الاعتراف بالسيادة العثمانية أو إظهار أي شكل من أشكال التبعية الرمزية للسلطان العثماني.

وتحوّل الصراع بين الجانبين إلى حرب استخباراتية وسياسية؛ حيث سعى كل طرف إلى كسب ولاء القبائل الحدودية والقادة المحليين في المغرب الأوسط لتقوية نفوذه وإضعاف خصمه. وتسبب هذا الوضع في اضطراب الأمن بالمناطق الحدودية، وبقاء حالة التوتر السياسي والعسكري مستمرة بين السعديين والعثمانيين طوال تلك الفترة[2].

وفي ظل هذه الظروف، أدرك محمد الشيخ صعوبة الاستمرار في المواجهة العسكرية المباشرة مع العثمانيين؛ فدخل في مناورات سياسية عبر فتح قنوات اتصال مع الإسبان، مستهدفاً استغلال التوازنات الدولية لصالحه والاستعانة بها لصد الضغط العثماني المتزايد على حدوده الشرقية[3] وقد أثار هذا التوجه غضب العثمانيين الذين اعتبروا أي تقارب سعدي إسباني تهديداً مباشراً للمصالح العثمانية بالمغرب الإسلامي.

---

[1] المدني، *حرب الثلاثمائة سنة*، ص 224

[2] بوزيد، "الصراع السعدي العثماني حول تلمسان وأثره على الدولة الزيانية (1554-1550م)"، ص 125..

[3] كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية: دراسة في السياسة الداخلية والخارجية، ص 144.

أسفر هذا التوتر لاحقاً عن تصاعد الصراع السياسي بين الطرفين بشكل أكبر، خاصة بعد أن نجح العثمانيون في تقوية وجودهم العسكري بالجزائر، في مقابل تمسك السعديين بحماية استقلال المغرب الأقصى ورفضهم القاطع لأي نفوذ عثماني داخل بلادهم. وبذلك، كانت هذه المواجهات الأولى بداية لمرحلة جديدة من الحرب السياسية والعسكرية التي طبعت العلاقات الثنائية طوال النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي.

المبحث الثاني

الموقف السعدي من العثمانيين بين الصراع والتوازن السياسي

بعد أن استعاد العثمانيون نفوذهم في تلمسان وتراجع التمدد السعدي في المغرب الأوسط، فهم السعديون أن الحرب المباشرة مع الدولة العثمانية تحتاج إلى إمكانيات سياسية وعسكرية ضخمة، خاصة بعد أن أصبحت إيالة الجزائر قوة كبيرة في المنطقة المغاربية. وفي نفس الوقت، لم يتمكن العثمانيون من التقدم نحو المغرب الأقصى بسبب انشغالهم بالحرب ضد الإسبان في البحر المتوسط وفي جبهات عسكرية أخرى تابعة للدولة العثمانية. ونتيجة لذلك، تميزت العلاقات السعدية العثمانية خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي بمزيج من النزاع السياسي والتوازن الحذر؛ حيث حاول كل طرف حماية مصالحه وتجنب الدخول في حرب شاملة قد تضعف القوتين معاً في المغرب الإسلامي.

وأثر العامل الإسباني بشكل كبير في توجيه موقف السعديين من العثمانيين؛ حيث وجد السعديون أنفسهم مضطرين للاستفادة من التحالفات الدولية لحماية استقلال المغرب الأقصى ووقف التمدد العثماني. وفي المقابل، راقب العثمانيون بحذر أي تقارب بين السعديين وإسبانيا، لأن الدولة العثمانية كانت تخوض وقتها حرباً مفتوحة ضد الإسبان للسيطرة على البحر الأبيض المتوسط[1].

ومن جهة أخرى، لم تمنع حالة التوتر وجود بعض محاولات التهدئة السياسية بين الطرفين، خاصة عندما كانت الظروف الإقليمية تفرض نوعاً من التعاون غير المباشر ضد الخطر الإيبيري. غير أن هذه المحاولات ظلت محدودة بسبب استمرار الخلاف حول قضية السيادة والشرعية السياسية داخل المغرب الإسلامي.

[1] كريم، المرجع السابق، ص 146.

وشهدت هذه المرحلة تطوراً واضحاً في موقف السعديين من العثمانيين؛ حيث زاد تمسكهم بحماية استقلال المغرب الأقصى، ورفضوا تماماً أي تبعية سياسية أو رمزية للدولة العثمانية. وجاء هذا الموقف خاصة بعد أن نجح السعديون في تثبيت حكمهم الداخلي، وتقوية شرعيتهم السياسية والدينية بين القبائل[1]

1- موقف السعديين من الصراع العثماني الإسباني

واجه السعديون في القرن السادس عشر الميلادي وضعاً سياسياً معقداً بسبب الحرب المستمرة بين الدولة العثمانية وإسبانيا في البحر المتوسط والمغرب الإسلامي. وأدى التمدد العثماني في المغرب الأوسط مع بقاء الإسبان في الموانئ الساحلية إلى تحويل المنطقة لساحة صراع دولي، مما جعل الدولة السعدية تتخذ موقفاً حذراً لحماية استقلال المغرب الأقصى ومنع خضوعه للسيادة العثمانية أو التبعية الإسبانية. وفهم السعديون أن الدولة العثمانية أصبحت قوة سياسية وعسكرية كبرى بعد استقرارها في الجزائر، وأنها تستخدم حربها ضد إسبانيا لتوسيع نفوذها في المنطقة، ولذلك رفضوا الانضمام تماماً للمشروع العثماني رغم أن الطرفين كانا يحاربان معاً التوسع المسيحي على السواحل[2].

ولم ينظر السعديون إلى إسبانيا كحليف طبيعي، خاصة مع استمرار الاحتلال الإسباني والبرتغالي لعدة موانئ وثغور مغربية. غير أن توازنات القوى في القرن السادس عشر فرضت عليهم استغلال الحرب بين العثمانيين والإسبان كعامل توازن، لحماية استقلال المغرب الأقصى ومنع الزحف العثماني نحو بلادهم[3]. وظلت السياسة السعدية واضحة خلال عهد محمد الشيخ؛ حيث فتح اتصالات سياسية غير مباشرة مع الإسبان، مما أثار غضب العثمانيين الذين اعتبروا أي تقارب سعدي إسباني خطراً حقيقياً على وجودهم في المغرب الإسلامي. لكن هذه الاتصالات لم تكن تحالفاً استراتيجياً ثابتاً بين الطرفين، بل كانت جزءاً من سياسة توازن اتبعها محمد الشيخ لمواجهة الضغط العثماني المتزايد؛ لأنه كان يعلم أن دولته لا تقدر

[1] الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، مرجع سابق ،ج 5، ص 61

[2] كريم، المرجع السابق، ص 149

[3] القدوري، المغرب وأوروبا في القرن السادس عشر: إشكالية التجاوز، ص 132

على محاربة العثمانيين والإسبان معاً في نفس الوقت، ولذلك استغل الخلافات الدولية في البحر المتوسط.[1]

وساهمت التحولات السياسية والعسكرية في توجيه موقف السعديين من الصراع العثماني الإسباني، خاصة بعد اشتداد المعارك البحرية بين الطرفين في منتصف القرن السادس عشر الميلادي؛ إذ تحولت الجزائر إلى قاعدة رئيسية لانطلاق العمليات العسكرية العثمانية ضد الإسبان، وهو ما زاد من الأهمية الاستراتيجية للمغرب الأقصى في توازنات البحر الأبيض المتوسط.[2]

وحاول الإسبان استغلال مخاوف السعديين من التمدد العثماني؛ حيث شجعت الحكومة الإسبانية الدولة السعدية على مواصلة معارضة التوسع التركي في المغرب الأوسط، خاصة بعد أن زادت قوة إيالة الجزائر. وأثر هذا الوضع على السياسة الخارجية للسعديين التي صارت تعتمد بشكل واضح على المناورة السياسية ومحاولة الحفاظ على التوازن بين القوى المتصارعة؛ وظهر ذلك في حرص السعديين على تجنب القطيعة النهائية مع العثمانيين، مع تفادي الحرب المباشرة مع الإسبان إلا إذا فرضت الظروف العسكرية والسياسية ذلك.[3]

وقد استمر هذا التوجه حتى خلال عهد عبد الله الغالب السعدي [4]الذي حاول بدوره تفادي الصدام المباشر مع الدولة العثمانية مع الحفاظ على استقلال المغرب الأقصى. كما شهدت هذه المرحلة استمرار الاتصالات الدبلوماسية والمناورات السياسية بين مختلف القوى المتنافسة بالمغرب الإسلامي والبحر المتوسط.

---

[1] كريم، المرجع السابق، ص 151.

[2] سعيدوني، المرجع السابق، ص 72.

[3] كريم، المرجع نفسه، ص 154

[4] عبد الله الغالب بالله السعدي (1517-1574م) :هو ثاني سلاطين الدولة السعدية بالمغرب الأقصى، تولى الحكم سنة 1557م بعد اغتيال والده محمد الشيخ. تميز عهده بالعمل على تحصين الجبهة الداخلية وبناء جامع المواسين ومدرسة بن يوسف بمراكش. وعلى صعيد السياسة الخارجية، استمر على نهج والده في حماية استقلال المغرب الأقصى؛ حيث واجه وبحسم التحديات العسكرية القادمة من إيالة الجزائر، ونجح في صد العثمانيين وهزيمتهم في معركة وادي اللبن سنة 1558م، مما أمن حدود بلاده طوال فترة حكمه التي استمرت حتى وفاته. أنظر: الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج 5، ص 75.

ومن جهة أخرى، ساهمت معركة ليبانتو سنة 1571م[1] في تغيير جزء من موازين القوى داخل البحر المتوسط، إذ أضعفت الأسطول العثماني وأعادت لإسبانيا وحلفائها الأوروبيين جزءاً من التفوق البحري. و تابع السعديون هذه التطورات بحذر، خاصة لما لها من تأثير مباشر على وضعية العثمانيين بالمغرب الأوسط وعلى طبيعة الصراع داخل المنطقة المغاربية.

2- محاولات التهدئة والتقارب السياسي بين السعديين والعثمانيين

لم تشهد العلاقات السعدية العثمانية في القرن السادس عشر الميلادي استقراراً سياسياً ثابتاً، بل تراوحت بين الحرب العسكرية ومحاولات فرض التوازن في المغرب الإسلامي .وجاءت هذه التحولات نتيجة للأحداث التي تلت سقوط الدولة الوطاسية وظهور الدولة السعدية في المغرب الأقصى، وتحديداً بعد أن تدخل العثمانيون لصالح أبي حسون الوطاسي[2] في محاولة منهم للتأثير المباشر على السلطة الحاكمة في المغرب. فبعد أن نجح محمد الشيخ السعدي في السيطرة على مدينة فاس عام 1549م والقضاء على الحكم الوطاسي، هرب أبو حسون الوطاسي إلى الجزائر العثمانية لطلب المساعدة العسكرية والسياسية. واعتبر العثمانيون هذا اللجوء فرصة مواتية للتدخل في المغرب الأقصى وإضعاف الدولة السعدية الناشئة التي أعلنت بوضوح رفضها التام للنفوذ العثماني في المنطقة.[3]

---

[1] معركة ليبانتو: (1571م) :هي واحدة من أكبر المعارك البحرية في التاريخ الحديث، وقعت في خليج باتراس (قرب اليونان) بين الأسطول العثماني وتحالف 'العصبة المقدسة' المسيحي الذي ضم إسبانيا، والبندقية، والبابوية. وانتهت المعركة بهزيمة بحرية قاسية للعثمانيين وفقدانهم آلاف الجنود والقطع البحرية. وفي السياق المغاربي، أضعفت هذه الهزيمة من قدرة العثمانيين على مواصلة التوسع غرباً، وزادت من حاجة الباب العالي لإيالة الجزائر كقاعدة دفاعية متقدمة في المتوسط، مما انعكس على شكل التوازنات السياسية والعسكرية بين العثمانيين والسعديين. أنظر :المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792، ص 312.

[2] أبو حسون الوطاسي (ت 1554م) :هو آخر حكام الدولة الوطاسية في المغرب الأقصى، وسعى جاداً لاستعادة عرش عائلته بعد دخول السعديين إلى عاصمة ملكه فاس. ونتيجة لضعف إمكانياته المحلية، لجأ إلى طلب الدعم العسكري من العثمانيين في إيالة الجزائر؛ حيث أمدّه الباشا صالح ريس بجيش عثماني نجح عبره في دخول فاس وإعادة الحكم الوطاسي لعدة أشهر سنة 1554م، قبل أن يقتله السلطان محمد الشيخ السعدي في معركة التمكين ويقضي تماماً على الدولة الوطاسية.أنظر: الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج 5، ص 32

[3] جوليان، المرجع السابق، ص 266

وفي سنة 1554م، قاد صالح ريس[1] حملة عسكرية نحو المغرب الأقصى لدعم أبي حسون الوطاسي ونجحت القوات العثمانية في دخول مدينة فاس وتنصيب أبي حسون سلطاناً تحت الحماية العثمانية. شكّل هذا الحدث أول تدخل عثماني عسكري مباشر في شؤون الحكم داخل المغرب الأقصى، وأوضح طبيعة التحول الإستراتيجي في سياسة العثمانيين تجاه الدولة السعدية. ورغم هذا الدعم، لم يتمكن أبو حسون من تثبيت سلطته طويلاً؛ بسبب استمرار النفوذ السعدي في عدة مناطق مغربية، وخاصة في الأقاليم الجنوبية مثل سوس ودرعة. كما احتفظ محمد الشيخ السعدي بولاء ودعم قبائل وزوايا صوفية كثيرة ساندت مشروعه السياسي منذ بدايته[2].

وقد لعبت بعض القبائل السوسية، خاصة فروع جزولة [3]وهنتاتة[4]، دوراً مهماً في إعادة تجميع القوة العسكرية للسعديين، إضافة إلى استمرار تأثير الزاوية الجزولية[5] التي ساهمت في ترسيخ الشرعية الدينية للدولة السعدية من خلال دعم فكرة الجهاد ضد البرتغاليين وربط سلاطينها بالنسب الشريف.

---

[1] صالح ريس (1556-1488م) :هو أحد أشهر قادة البحرية العثمانية وبيلرباي (حاكم) إيالة الجزائر بين عامي 1552 و1556م. تميز عهده بالقوة والنشاط العسكري؛ حيث نجح في طرد الإسبان من بجاية وتوسيع حدود الإيالة. وفي سياق الصراع مع السعديين، قاد بنفسه الحملة العسكرية العثمانية التي توجهت نحو المغرب الأقصى عام 1554م لدعم أبي حسون الوطاسي، حيث تمكن من دخول مدينة فاس وهزيمة قوات محمد الشيخ السعدي، قبل أن ينسحب منها بعد إعادة الوطاسيين للحكم مؤقتاً ،أنظر: المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792، ص 228

[2] الناصري، المرجع السابق، ص 34

[3]. جزولة (أو كزولة) :هي حلف قبلي أمازيغي كبير يقع في منطقة سوس وجنوب المغرب الأقصى .لعبت هذه القبائل دوراً حاسماً في التاريخ المغربي، وخاصة في بداية القرن السادس عشر؛ حيث شكلت الدعامة العسكرية والبشرية الأولى التي ارتكزت عليها الدعوة السعدية. وبفضل مساندة قبائل جزولة الشديدة، تمكن السلاطين السعديون من توحيد البلاد، ومحاربة البرتغاليين في الثغور، ومواجهة الضغوط العسكرية الخارجية، أنظر : الحسن بن محمد الوزان، *وصف إفريقيا*، ص 155-157.

[4] هنتاتة:هي قبيلة مصمودية أمازيغية من سكان جبال الأطلس الكبير قرب مراكش .كانت هذه القبيلة تاريخياً من ركائز الموحدين، وحكمت مراكش لفترة خلال العهد المريني. وعند ظهور السعديين، لعبت هنتاتة دوراً هاماً في صراع الشرعيات؛ حيث انقسمت مواقف رجالاتها وأعيانها بين مؤيد للمشروع السعدي الناشئ وبين متحالف مع القوى المحلية الأخرى، مما أثر على توازنات الحكم في جنوب المغرب الأقصى قبل توحيد البلاد.أنظر : المرجع نفسه، ج 1، ص 244

[5] الزاوية الجزولية: هي زاوية وطريقة صوفية أسسها الشيخ محمد بن سليمان الجزولي (ت 1465م) في جنوب المغرب، واعتمدت في أفكارها على الدعوة إلى الجهاد وتطهير البلاد من الاحتلال الإيبيري والبرتغالي. ولم يقتصر دور هذه الزاوية على الجانب الديني والروحي

من جهة أخرى، لم يحظ الوجود العثماني داخل فاس بتأييد كامل في الأوساط السياسية والدينية بالمغرب الأقصى خاصة بعد دخول القوات العثمانية العاصمة المغربية بصورة مباشرة وتنصيب سلطان مرتبط بالحماية العثمانية وقد أبدى بعض علماء فاس نوعاً من التحفظ تجاه هذا التدخل، معتبرين أن السلطة بالمغرب الأقصى يجب أن تبقى مستقلة عن النفوذ الخارجي.

وواجهت القوات العثمانية صعوبات كبيرة بسبب طبيعة الأرض المغربية وبعد خطوط الإمداد العسكرية بين فاس والجزائر، مما جعل بقاء جيشهم داخل المغرب الأقصى أمراً معقداً. واستغل محمد الشيخ هذه الظروف لترتيب صفوف قواته والزحف نحو فاس، مستفيداً من تراجع الدعم العسكري المباشر الذي كان يتلقاه أبو حسون. وانتهت هذه الأحداث بسقوط حكم أبي حسون الوطاسي ومقتله بعد أن استعاد السعديون السيطرة على فاس، وشكل ذلك فشلاً واضحاً لأول محاولة عثمانية للتدخل المباشر في شؤون الحكم بالمغرب. كما تسبب هذا الانتصار في زيادة التوتر بين محمد الشيخ السعدي والعثمانيين، خاصة بعد أن تأكد السعديون أن الدولة العثمانية تحاول فرض سيادتها السياسية على المغرب الأقصى كما فعلت سابقاً في المغرب الأوسط.[1]

وعلى الرغم من هذا التصعيد، لم تتجه العلاقات بين الطرفين مباشرة نحو حرب شاملة؛ إذ فرضت الظروف السياسية والعسكرية نوعاً من التوازن الحذر. فقد كان العثمانيون منشغلين بالحرب ضد الإسبان في البحر المتوسط وفي جبهات عسكرية أخرى تابعة للدولة العثمانية، في حين كان السعديون بحاجة إلى تثبيت حكمهم الداخلي وإعادة تنظيم أوضاع دولتهم بعد سنوات من الصراع العسكري والسياسي. وفي هذا السياق، ظهرت بعض أشكال التهدئة غير المباشرة؛ حيث تجنب كل جانب الدخول في مواجهة عسكرية واسعة مع استمرار الحذر السياسي المتبادل. غير أن هذه التهدئة ظلت مؤقتة، لأن جوهر الخلاف بين السعديين والعثمانيين كان يتعلق بقضية السيادة والشرعية السياسية داخل المغرب الإسلامي، وهي القضية التي عادت للظهور بصورة أقوى خلال المراحل اللاحقة.

فقط، بل كانت المحرك الأساسي الذي منح الشرعية السياسية والدعم الشعبي والقبلي لظهور الأشراف السعديين؛ حيث ساهم تلامذتها وخلفاؤها في جمع القبائل حول راية السعديين وتأسيس دولتهم لمواجهة الأخطار الداخلية والخارجية.أنظر الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج 5، ص 14 .

[1] جوليان، المرجع السابق، ص 266.

3- تطور السياسة السعدية تجاه آل عثمان

تميزت العلاقات السعدية العثمانية بمنعطف تاريخي حاسم بعد اغتيال السلطان محمد الشيخ عام 1557م[1]، مما أدخل المغرب الأقصى في حالة من عدم الاستقرار السياسي. وتؤكد مؤلفات تاريخية أن تدبير هذه العملية جاء بقرار عثماني مباشر، نتيجة لرفض السلطان السعدي القاطع للتوسع التركي في شمال إفريقيا. هذا الحدث المحوري نقل طبيعة الخلاف بين الطرفين من نزاع حدودي محدود إلى مواجهة سياسية شاملة، أسهمت بشكل رئيسي في صياغة خارطة النفوذ والسيادة الإقليمية في المنطقة المغاربية[2].

تولى عبد الله الغالب حكم السعديين بعد مقتل والده محمد الشيخ، فواجه وضعاً داخلياً صعباً تطلب منه الحفاظ على وحدة الدولة، وتأمين حدودها ضد الأخطار العثمانية القادمة من الجزائر. ولتفادي إنهاك دولته الناشئة، اختار الغالب في البداية تجنب الحرب المباشرة مع العثمانيين، لكنه تمسك في الوقت نفسه باستقلال المغرب التام، ورفض الخضوع لسيطرة الباب العالي السياسية أو الدينية[3].

غير أن الأزمة الحقيقية بدأت مع خروج عدد من الأمراء السعديين المعارضين لعبد الله الغالب نحو الجزائر العثمانية، وعلى رأسهم عبد الملك وأحمد[4] ابنا محمد الشيخ، اللذان دخلا تحت حماية العثمانيين بعد اشتداد الصراع على السلطة داخل البيت السعدي.

---

[1] اغتيال السلطان محمد الشيخ (1557م) :هو حدث تاريخي مفصلي تمثل في تصفية مؤسس الدولة السعدية على يد فرقة من الإنكشارية العثمانية بقيادة "صالح الكاهية" في جبال أطلس. وجاءت العملية بدوافع سياسية محددة رداً على مواقفه المتصلبة المناهضة للتوسع العثماني ورفضه التبعية للباب العالي، مما أدى إلى تحول الصراع من نزاع حدودي تقليدي إلى مواجهة مفتوحة رسمت ملامح السيادة المغربية، وأدخلت البلاد في اضطراب سياسي مؤقت حتى ضبطه ابنه وخلفه عبد الله الغالب. أنظر: الناصري، ص ص. 31-35؛ وينظر أيضاً: كريم، ص ص. 80-85.

[2] كريم، المرجع نفسه ،ص ص. 78-82

[3] محمد الصغير الإفراني، المرجع السابق، ص ص. 116-118

[4] عبد الملك وأحمد (أبناء محمد الشيخ) :هما الأميران السعديان اللذان غادرا المغرب الأقصى صوب العثمانيين في الجزائر ثم إسطنبول بعد تولي أخيهما عبد الله الغالب الحكم عام 1557م؛ وذلك بسبب الصراع على السلطة وخوفاً من التصفية السياسية. تلقى الشقيقان دعماً عسكرياً وسياسياً من العثمانيين مكّن عبد الملك لاحقاً من العودة واسترجاع العرش، ثم تبعه أخوه أحمد (المنصور بالله) بعد معركة وادي المخازن الشهيرة. أنظر: أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً، تحقيق: عبد الكريم الفيلالي، دار نشر المعرفة، الرباط، 1991م، ص ص. 45-48.

استغل العثمانيون لجوء الأمراء السعديين المعارضين إلى الجزائر كذريعة سياسية للتدخل في شؤون المغرب الأقصى دون الحاجة لغزو مباشر. وخلال هذه الفترة، أقام الأمير عبد الملك السعدي زمناً طويلاً بالجزائر وإسطنبول، حيث احتك بنظمهم السياسية وشارك في حملاتهم العسكرية بأوروبا والمشرق، مما أكسبه خبرة ميدانية وتكتيكية عالية صقلت مؤهلاته للعودة إلى وطنه لاحقاً بدعم تركي. وفي المقابل، ظل السلطان عبد الله الغالب يراقب هذه التحركات بحذر، فعمل على تحصين حدوده الشرقية وتقوية جيشه مع فرض رقابة صارمة على القبائل الحدودية[1].وفي عام 1574م، دخلت الدولة السعدية منعرجاً جديداً بوفاة عبد الله الغالب وتولي ابنه محمد المتوكل[2] الحكم، وأدى ذلك إلى تجدد النزاع الأسري على العرش السعدي، وهو الوضع الذي استثمره الأمير عبد الملك بذكاء؛ حيث سارع إلى طلب دعم عسكري مباشر من الباب العالي في إسطنبول، من جانبهم، رأى العثمانيون في هذا الطلب فرصة ذهبية لمد نفوذهم السياسي نحو المغرب الأقصى وتأمين حدودهم الغربية بصورة غير مباشرة.

نتيجة لهذا التوافق قاد والي الجزائر رمضان باشا جردة عسكرية منظمة ، نجحت بالتعاون مع أنصار عبد الملك في هزم قوات محمد المتوكل ودخول العاصمة فاس سنة 1576م. قد شكل هذا الحدث أخطر تدخل عثماني في المغرب الأقصى منذ قضية أبي حسون الوطاسي، لأن عبد الملك وصل إلى الحكم هذه المرة بدعم عثماني مباشر. كما أثار ذلك تساؤلات كبيرة حول طبيعة العلاقة التي ستربط الدولة السعدية بالعثمانيين بعد وصول سلطان مدعوم من الباب العالي إلى السلطة.

[1] عبد الكريم الفيلالي، التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير، شركة الطبع والنشر عين المديفر، الرباط، 2008م، ج 3، ص ص. 112-115.

[2] محمد المتوكل (ت 1578م) :هو أبو عبد الله محمد المتوكل رابع سلاطين الدولة السعدية، تولى الحكم عام 1574م بعد وفاة والده عبد الله الغالب. اتسم عهده القصير بالاضطراب السياسي الحاد نتيجة تجدد الصراع العائلي على العرش، حيث واجه ثورة عمه عبد الملك المدعوم عسكرياً من العثمانيين. وبعد هزيمته وسقوط عاصمته فاس عام 1576م، فرّ المتوكل واستنجد بملك البرتغال "سباستيان"، وهو التحالف الذي أدى في النهاية إلى اندلاع معركة وادي المخازن عام 1578م، والتي لقي فيها حتفه غرقاً. أنظر: أحمد توفيق، المجتمع المغربي في القرن السادس عشر: العهد السعدي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1989م، ص ص. 95-98.

على الرغم من ارتكاز السلطان عبد الملك السعدي على الدعم العسكري العثماني لاسترداد عرشه، فإنه حرص على إبقاء المغرب الأقصى بمنأى عن التبعية المباشرة للباب العالي، رافضاً تحويل بلاده إلى إيالة تركية. وقد تجلت هذه السياسة الحذرة في سعيه الدؤوب للموازنة بين استثمار القوة العثمانية لتثبيت أركان حكمه الداخلي، والحفاظ المطلق على استقلالية الدولة السعدية؛ حيث أبقى على حيوية المؤسسات السياسية المغربية التقليدية، ومنع أي شكل من أشكال التواجد العسكري العثماني الدائم داخل التراب المغربي[1]. في المقابل، فر محمد المتوكل إلى البرتغال طالباً الدعم من الملك سبستيان[2] بغية استرداد العرش السعدي، الأمر الذي أقحم المغرب الأقصى في منعرج متقدم من الصدام الدولي. وقد تلقف البرتغاليون هذه التطورات كفرصة تاريخية مواتية لتسويغ تدخلهم العسكري المباشر، ومحاولة بسط هيمنتهم وتوسيع رقعة نفوذهم الإستراتيجي داخل المجال المغاربي[3].

قاد الملك البرتغالي سباستيان سنة 1578م حملة عسكرية كبرى نحو السواحل المغربية لدعم حليفه محمد المتوكل. وفي المقابل، نجح عبد الملك السعدي في تنظيم جبهته الدفاعية والتقى بالجيش البرتغالي في معركة

[1] عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، تحقيق: عبد الكريم كريم، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1973م، ص ص. 42-45.

[2] الملك سباستيان :(Sebastian I of Portugal) هو ملك البرتغال (ت 1578م) الذي ارتبط اسمه بشكل وثيق بمنعرج تاريخي حاسم في تاريخ المغرب الإسلامي والعلاقات الدولية في حوض البحر الأبيض المتوسط. اعتلى العرش البرتغالي في سن مبكرة، وتملكه طموح صليبي جارف لإعادة إحياء الأمجاد العسكرية البرتغالية وتوسيع النفوذ الإيبيري في شمال إفريقيا. استغل لجوء السلطان السعدي المخلوع محمد المتوكل إليه مستنجداً بعد هزيمته أمام عمه عبد الملك عام 1576م، فقرر سباستيان قيادة حملة عسكرية صليبية ضخمة بنفسه بحراً صوب الشواطئ المغربية، بهدف تنصيب المتوكل حاكماً تابعاً للبرتغال وكبح النفوذ العثماني المتنامي في المنطقة. قاد هذه المغامرة العسكرية التي انتهت بكارثة مدوية في معركة وادي المخازن (معركة الملوك الثلاثة) في 4 أغسطس 1578م، حيث لقي حتفه في الميدان، مما تسبب في انهيار الإمبراطورية البرتغالية ودخولها تحت التاج الإسباني. أنظر: أنظر: لويس كربخال مارمول، إفريقيا، ترجمة: محمد حجي وآخرون، مطابع المعارف الجديدة، الرباط، ط 1، 1989م، ج 2، ص. 340

[3] مارمول كربخال، المرجع نفسه، ج 2، ص. 340

وادي المخازن [1] بالقرب من القصر الكبير، حيث تمكن من حسم المعركة لصالحه بفضل الاستعانة بقادة وعناصر عسكرية ذات خبرة بالتاكتيكات الحربية العثمانية[2].

انتهت المعركة بانتصار حاسم للدولة السعدية ومقتل كل من الملك سبستيان ومحمد المتوكل وعبد الملك السعدي نفسه لذا عرفت في المصادر الأوروبية بمعركة الملوك الثلاثة. و شكل هذا الانتصار تحولاً مهماً في تاريخ المغرب الأقصى، إذ عزز مكانة الدولة السعدية داخلياً وخارجياً وأثبت قدرتها على مواجهة القوى الأوروبية دون الخضوع المباشر للنفوذ العثماني.

ورغم أن هذا النصر تحقق في سياق دعم عثماني سابق، إلا أن السلطان الجديد أحمد المنصور الذهبي (1578-1603م) استغل هذا الزخم الدولي ليتخلص من أي شكل من أشكال التبعية السياسية للباب العالي، مستنداً إلى الهيبة العسكرية التي اكتسبها دولياً والغنيمة الضخمة التي أنعشت خزينة الدولة؛ فتحول الموقف السعدي تجاه آل عثمان من خانة الاستنجاد والمدارات إلى طور الندّية السياسية المستقلة. ويؤكد المؤرخ أبو عبد الله الإفراني في كتابه "نزهة الحادي "أبعاد هذا التحول التاريخي ونظرة الجوار العثماني وتوجسه من تنامي مكانة المنصور بعد المعركة بقوله" :**ولما شاع خبر هذه الواقعة (القصر الكبير) في الأقطار، طار صيت المنصور بالهيبة في بلاد العجم والعرب، ودخلت الهيبة منه لقلوب ملوك النصارى والمسلمين على السواء، فصار التحفظ والتحذر مستبحراً بين الجانبين، والعيون ساهرة من الطرفين على التخوم** ."[3]وهو ما يوضح أن معركة وادي المخازن نقلت العلاقات إلى مرحلة التوازن المسلح والصراع الرمزي حول السيادة والألقاب التي ميزت أواخر القرن السادس عشر؛ إذ لم تكن

---

[1] معركة وادي المخازن وتُعرف بـ معركة الملوك الثلاثة أو معركة القصر الكبير :مواجهة عسكرية وقعت في 4 أغسطس 1578م (30 جمادى الأولى 986هـ) قرب مدينة القصر الكبير بشمال المغرب الأقصى جمعت بين القوات البرتغالية بقيادة الملك سباستيان وحليفه السلطان السعدي المخلوع محمد المتوكل من جهة، والجيش السعدي بقيادة السلطان عبد الملك الأول وأخيه أحمد من جهة أخرى، بدعم عثماني وانتهت المعركة بمقتل الملوك الثلاثة (سباستيان، وعبد الملك بسبب المرض والجهد، والمتوكل غرقاً)، وانهيار الإمبراطورية البرتغالية سياسياً وعسكرياً، وصعود أحمد المنصور بالله سدة الخلافة السعدية ، أنظر : عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، ص ص. 48-55

[2] عمار بن خروف، العلاقات بين الجزائر والمغرب، ص ص. 182-185

[3] محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله الإفراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، مرجع سابق، ص 32 وص 42

محاولات التهدئة اللاحقة والبعثات الدبلوماسية المتبادلة تنازلاً عن السيادة بقدر ما كانت مناورة ذكية لحفظ استقلال الدولة« .

مرت السياسة السعدية تجاه آل عثمان خلال هذه المرحلة بعدة تحولات ارتبطت بالصراعات الداخلية والتدخلات العثمانية والتوازنات الدولية، غير أن الهدف الأساسي للدولة السعدية ظل يتمثل في الحفاظ على استقلال المغرب الأقصى ومنع خضوعه المباشر للنفوذ العثماني.

المبحث الثالث

الصراع حول الشرعية والسيادة بالمغرب الإسلامي

لم يكن الخلاف بين السعديين والعثمانيين في القرن السادس عشر مجرد صراع عسكري على الحدود، بل كان صداماً عميقاً حول السيادة والشرعية الدينية؛ إذ أراد كل طرف إثبات أنه الأحق بقيادة العالم الإسلامي في شمال إفريقيا

فالدولة العثمانية رأت نفسها ممثلة "الخلافة الإسلامية" بعد سيطرتها على الحرمين الشريفين وحمايتها للمتوسط من الأوربيين. وفي المقابل، تمسك السعديون باستقلالهم التام بناءً على شيئين :نسبهم الشريف المتصل بآل البيت، وقيادتهم لحركة الجهاد التي طردت البرتغاليين ووحدت المغرب الأقصى.

"يُلقي فرمان عثماني طويل ومفصل من عام 1689م – أي بعد سقوط الدولة السعدية – الضوء على الثوابت العثمانية في نظرتهم للجهاد والخلافة. يستخدم الفرمان آيات قرآنية وأحاديث نبوية بكثافة لتأطير الغزو والقرصنة كواجب ديني، ويؤكد على دور السلطان العثماني ك 'خليفة المسلمين'.

هذا الخطاب الرسمي يوضح الإطار النظري الذي استندت إليه الخلافة العثمانية في سعيها للهيمنة الروحية، والذي تصدى له السعديون بخطابهم القائم على النسب الشريف والجهاد المحلي[1]".

وقد حاول كلا الطرفين كسب تأييد العلماء والزوايا لتعزيز موقفه الديني والسياسي. وظهر هذا التنافس بوضوح بعد معركة وادي المخازن وتولي السلطان أحمد المنصور الحكم، حيث عمل على إظهار الدولة السعدية كقوة عظمى مستقلة ومنافسة للخلافة العثمانية.

[1] الجزائر في الوثائق العثمانية، المرجع السابق ، ص. 28، الوثيقة رقم 2.

أ–موقف السعديين من الخلافة العثمانية

عرفت العلاقات السعدية العثمانية تحولاً مهماً بعد وصول أحمد المنصور السعدي[1] إلى الحكم سنة 1578م عقب معركة وادي المخازن، إذ انتقل الصراع بين الطرفين من مجرد تنافس سياسي وعسكري حول النفوذ داخل المغرب الإسلامي إلى منافسة أكثر عمقاً ارتبطت بقضية الزعامة الإسلامية والشرعية السياسية. فقد أصبح أحمد المنصور ينظر لدولته باعتبارها قوة قادرة على فرض حضورها داخل العالم الإسلامي، خاصة بعد الانتصار الكبير الذي حققه المغرب الأقصى ضد البرتغال.

وقد ساهمت الظروف الدولية التي أعقبت معركة وادي المخازن في تعزيز مكانة المنصور داخلياً وخارجياً، إذ اكتسبت الدولة السعدية سمعة واسعة داخل العالم الإسلامي وأوروبا بعد هزيمة الحملة البرتغالية ومقتل الملك سبستيان. كما جنى المغرب الأقصى عائدات مالية ضخمة بفضل مبالغ فدية الأسرى البرتغاليين، ونمو النشاط التجاري عبر الصحراء الإفريقية. وقد مكّنت هذه الثروات المستجدة السلطان أحمد المنصور من تعزيز ركائز الدولة السعدية، وتطوير أجهزتها الإدارية، وعصرنة مؤسساتها العسكرية وتزويدها بالأسلحة الحديثة[2].

بدأ أحمد المنصور يتبنى خطاباً سياسياً يبرز مكانة الدولة السعدية كقوة مستقلة في العالم الإسلامي ترفض التبعية؛ وحرص على اتخاذ ألقاب سياسية ودينية تعكس طموحه العريض، وفي مقدمتها لقب أمير المؤمنين ولم يكن استخدام هذا اللقب حدثاً عادياً في القرن السادس عشر، لأن الدولة العثمانية كانت ترى في نفسها الممثل الأوحد للخلافة الإسلامية الجامعة. ومن ثم، فإن تبني المنصور لهذا اللقب تضمن رسالة

[1] أحمد المنصور السعدي (ت 1603م) :هو أبو العباس أحمد المنصور بالله الذهبي، خامس وأشهر سلاطين الدولة السعدية بالمغرب الأقصى .تولى الحكم مباشرة في أرض الميدان عقب الانتصار التاريخي في معركة وادي المخازن عام 1578م (معركة الملوك الثلاثة). تميز عهده بالطول والاستقرار والرخاء الاقتصادي، ولقب بـ "الذهبي" لوفيرة الذهب المجلوب بعد ضمه لبلاد السودان (تمبكتو). وعلى الصعيد الدبلوماسي، تبنى المنصور سياسة ندية وصارمة مع الخلافة العثمانية؛ حيث رفض التبعية للباب العالي وعمل على إبراز الدولة السعدية كقوة إسلامية مستقلة ومكافئة للعثمانيين في العالم الإسلامي، مستنداً إلى شرعية نسبه الشريف وهيبته العسكرية بعد دحر البرتغاليين. أنظر: عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، ص ص. 56-62.

[2] عبد العزيز الفشتالي، المرجع نفسه ص. 68.

سياسية واضحة تعلن رفضه التام للاعتراف بالتفوق الرمزي أو السياسي للسلطان العثماني في المنطقة المغاربية. [1]

سعى أحمد المنصور أيضاً إلى تجسيد استقلاله السياسي عبر إدارة علاقاته ومراسلاته الدبلوماسية مع القوى الدولية بشكل مباشر، دون وساطة أو مرجعية من الباب العالي العثماني. وفي هذا الإطار، تبادل المنصور السفارات والبعثات السياسية مع كل من إنجلترا، وفرنسا، والدولة العثمانية، وبعض الممالك الإفريقية كما استقبل بحفاوة السفراء الأجانب في بلاطه السعدي بمراكش، مما برهن على نضج وتطور الجهاز الدبلوماسي المغربي في عهده[2].

حاول أحمد المنصور تقديم نفسه سلطاناً إسلامياً يمتلك من المقومات السياسية والدينية ما يسمح له بمنافسة العثمانيين داخل العالم الإسلامي، خاصة مع اعتماده على النسب الشريف وربطه الدولة السعدية بآل البيت. وقد ظهر ذلك في عدد من الكتابات والخطب الرسمية التي ركزت على الشرعية الشريفة للسعديين وعلى استقلال المغرب الأقصى عن النفوذ العثماني و اهتم بإبراز المظاهر السلطانية والرمزية للدولة السعدية، حيث عمل على تطوير البلاط السعدي وتشييد عدد من المنشآت الكبرى مثل قصر البديع [3]بمراكش، الذي عكس حجم الطموح السياسي للدولة السعدية ورغبة المنصور في إظهار قوة المغرب الأقصى أمام القوى الإسلامية والأوروبية على السواء.

حرص أحمد المنصور على تجنب الدخول في مواجهة عسكرية مباشرة مع الدولة العثمانية، رغم استمرار التنافس السياسي بينهما؛ إذ كان يدرك تماماً حجم القوة العسكرية العثمانية، ولذلك اعتمد إستراتيجية

---

[1] المرجع نفسه ،ص. 72

[2] عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ص ص. 45-49.

[3] قصر البديع :هو معلم أثري وتاريخي بارز شيده السلطان السعدي أحمد المنصور بالله في عاصمته مراكش، وبدأ بناؤه عقب توليه الحكم والانتصار في معركة وادي المخازن عام 1578م.وقد استغرق تشييد هذا القصر الضخم نحو ستة عشر عاماً، وجاء بمثابة تجسيد معماري ورمزي لقوة الدولة السعدية وثروتها المستجدة؛ حيث مُوّل بناؤه بشكل أساسي من أموال فدية الأسرى البرتغاليين، وزُيّن بأفخر المواد الجلبة كالرخام الإيطالي، والذهب، والزليج ، ليكون مقراً لاستقبال الوفود والسفارات الدولية. ويحمل القصر دلالة سياسية واضحة تعكس رغبة المنصور في إبراز عظمة ملكه واستقلالية سيادته ومنافسته للهيبة المعمارية والسياسية للباب العالي العثماني. أنظر: عبد العزيز الفشتالي، المرجع السابق، ص ص. 102-106

قائمة على التوازن والحذر الدبلوماسي، مع التمسك المطلق برفض أي تبعية سياسية للباب العالي وتجلى هذا التوجه بوضوح في قضية الخطبة والسكة؛ إذ استمرت الخطبة في مساجد المغرب الأقصى باسم السلاطين السعديين دون ذكر السلطان العثماني، كما واصلت الدولة السعدية ضرب العملة ونقشها باسم المنصور، وهو ما كان يشكل في الفكر السياسي الإسلامي دليلاً قاطعاً على الاستقلال الفعلي والسيادة الكاملة[1].في المقابل ارتبط مشروع أحمد المنصور التوسعي نحو السودان الغربي[2] بمحاولة تعزيز مكانة الدولة السعدية داخل العالم الإسلامي ومنافسة القوى الكبرى بالمنطقة، خاصة بعد تزايد أهمية التجارة الصحراوية وذهب السودان. وقد رأى بعض المؤرخين أن حملة السودان لم تكن مجرد توسع اقتصادي، بل كانت أيضاً تعبيراً عن طموح سياسي يرمي إلى بناء قوة إسلامية واسعة قادرة على منافسة العثمانيين من الناحية الرمزية والسياسية.

ب–التنافس الرمزي والدبلوماسي بين السعديين وآل عثمان

تجاوز الخلاف السعدي العثماني في أواخر القرن السادس عشر حدود الصدام العسكري التقليدي، لينتقل إلى فضاء أكثر تعقيداً تمثل في التنافس الرمزي والدبلوماسي وظهر هذا التوجه جلياً في عهد السلطان أحمد المنصور، الذي سعى جاحداً لإبراز دولته كقوة إسلامية مستقلة، تملك الكفاءة السياسية والرمزية لمجاراة الخلافة العثمانية في العالم الإسلامي وقد ساعدت الظروف الدولية التي تلت معركة وادي المخازن (1578م) على تعزيز مكانة المنصور داخلياً وخارجياً، خاصة بعد دحر الغزو

[1] عمار بن خروف، العلاقات بين الجزائر والمغرب، مرجع سابق ،ص ص. 195- 197

[2] السودان الغربي :هو مصطلح جغرافي وتاريخي كان يُطلق قديماً على المنطقة الممتدة جنوب الصحراء الكبرى في إفريقيا، والتي تشمل حالياً دولاً مثل مالي، والنيجر، والسنغال، وتشاد.وقد ارتبط هذا المجال الجغرافي بشكل وثيق بتاريخ العلاقات المغربية العثمانية خلال الربع الأخير من القرن السادس عشر الميلادي؛ حيث قاد السلطان السعدي أحمد المنصور بالله حملة عسكرية ضخمة ومظفرة نحو هذه المنطقة عام 1591م، تمكن خلالها من إسقاط "إمبراطورية السونغاي" وضم مدنها الإستراتيجية مثل "تمبكتو" و"جاو". وحمل هذا التوسع أبعاداً إستراتيجية ودبلوماسية عميقة، إذ سعى المنصور من خلال السيطرة على مناجم الذهب وطرق القوافل الصحراوية إلى تقوية خزينة دولته مالياً، وإضفاء الشرعية الرمزية على خلافته (أمارة المؤمنين) لتقديم الدولة السعدية كقوة عظمى موازية ومنافسة للخلافة العثمانية في العالم الإسلامي.

البرتغالي ومقتل الملك سباستيان. واستغل المنصور الأموال الضخمة المتدفقة من فدية الأسرى وعائدات التجارة الصحراوية في تحصين مؤسسات دولته وعصرنة جهازها الدبلوماسي.

وبناءً على هذه المعطيات، انتهج المنصور سياسة ذكية تقوم على إظهار استقلال المغرب التام عن النفوذ العثماني؛ ولم يختر المواجهة الحربية المباشرة، بل ركز على المظاهر السلطانية والرموز السيادية التي شكلت، في العصر الحديث، عصب التنافس الرمزي بين الدول الإسلامية الكبرى.

ومن أبرز تجليات هذا التنافس توظيف الألقاب ذات البعد الديني والسياسي في المراسلات الرسمية وخطب الجمع والمناسبات السلطانية. فقد حرص أحمد المنصور على أن يلقب بـ"أمير المؤمنين" و"الإمام"، وهما لقبان يحملان دلالات سياسية واضحة في السياق الإسلامي، خصوصاً مع اعتقاد الدولة العثمانية أن سلطانها يتبوأ المكانة العليا في العالم الإسلامي.

كما انعكس هذا التنافس على تنظيم البلاط السعدي والمراسم الملكية بمراكش، حيث عمل المنصور على تطوير البنية الاحتفالية لقصوره وإظهار مظاهر الثراء والقوة بشكل لافت. وشكّل تشييد قصر البديع بعد معركة وادي المخازن مثالاً بارزاً على هذا التوجه، إذ لم يكن المشروع مجرد صرح معماري، بل بياناً سياسياً يهدف إلى إبراز قوة الدولة السعدية وعلو مكانتها في الوعي الإسلامي.

ومن ناحية أخرى، لعب المسلك الدبلوماسي دوراً محورياً في هذا الصراع، خاصة بعد انفتاح الدولة السعدية على قوى دولية متعددة إبان عهد أحمد المنصور. فقد أرسل السفارة إلى إنجلترا وفرنسا والدولة العثمانية وبلدان غرب إفريقيا، كما استقبل عدداً من المبعوثين الأوروبيين والإفريقيين في مراكش مما عكس رغبة أكيدة في تقديم المغرب الأقصى كدولة مستقلة ذات حضور دبلوماسي مباشر على المسرح الدولي.

وقد حظيت العلاقات السعدية الإنجليزية بأهمية خاصة في هذه المرحلة، حيث أقام أحمد المنصور قنوات اتصال سياسية وتجارية مع الملكة إليزابيث الأولى[1] في إطار سعيه إلى بناء توازن دولي يكبح النفوذ

[1] الملكة إليزابيث الأولى :(Queen Elizabeth I) هي ملكة إنجلترا وأيرلندا (ت 1603م) وأخر حكام أسرة تيودور، ارتبط اسمها بشكل وثيق بتاريخ العلاقات الخارجية المغربية في عهد السلطان أحمد المنصور السعدي.تبنت الملكة إليزابيث الأولى سياسة براغماتية حكيمة قوامها التعاون الإستراتيجي والاقتصادي المباشر مع المغرب الأقصى دون المرور عبر الباب العالي العثماني، حيث قادها العداء المشترك لإسبانيا (التاج الإيبيري) إلى نسج تحالف أنجلو–مغربي متين تجلى هذا التعاون في تأسيس "الشركة المغربية الإنجليزية" لتبادل الأسلحة والذخيرة الإنجليزية مقابل السكر والملح والذهب المغربي، بالإضافة إلى تبادل البعثات الدبلوماسية رفيعة المستوى واستقبال

الإسباني في كل من البحر المتوسط والمحيط الأطلسي. وتناول الطرفان العديد من المشاريع المشتركة، سواء على الصعيد التجاري أو العسكري، مما يؤكد تطور السياسة الخارجية السعدية في أواخر القرن السادس عشر الميلادي.

في المقابل، ظلت العلاقات الدبلوماسية بين السعديين والعثمانيين قائمة على الحذر السياسي المتبادل، رغم تبادل البعثات والرسائل بين الجانبين. وكان العثمانيون يتابعون بارتياب تصاعد نفوذ أحمد المنصور ومحاولاته الظهور بصفته سلطاناً إسلامياً مستقلاً ينافس دولتهم رمزياً وسياسيا.

وانعكس هذا التنافس بوضوح في صيغ المراسلات الرسمية بين البلاط السعدي والباب العالي؛ إذ حملت ترتيبات الألقاب وعبارات المخاطبة دلالات سياسية بالغة الأهمية فبينما كان العثمانيون ينتظرون من الحكام المسلمين اعترافاً صريحاً بالمكانة العليا والسيادة المطلقة لسلطانهم، أصر أحمد المنصور على استخدام لغة دبلوماسية دقيقة توحي بالمساواة السياسية والندية، رافضاً أي مظهر من مظاهر التبعية[1]

ومن جهة أخرى، ارتبط التوسع السعدي باتجاه السودان الغربي عام 1591م بهذا الصراع الرمزي، حيث سعى أحمد المنصور إلى توسيع دائرة نفوذه والسيطرة على طرق الذهب والتجارة الصحراوية، مما أتاح له موارد مالية ضخمة ومكانة سياسية أوسع داخل غرب إفريقيا. بل ذهب بعض المؤرخين إلى اعتبار هذا المشروع التوسعي محملاً ببعد رمزي، تمثل في بناء قوة إسلامية قادرة على مجاراة الدولة العثمانية في فضاء العالم الإسلام.

كما دفع هذا التنافس الدولة السعدية إلى تعزيز جيشها وتنظيم أجهزتها الإدارية بشكل أكبر، خصوصاً مع ازدياد الاحتكاك بالنموذج العثماني، واشتداد الصراع الدولي في المتوسط. واستفاد المنصور من بعض الخبرات العسكرية والتقنيات القادمة من الأوساط العثمانية والأندلسية، دون أن يؤدي ذلك إلى إخضاع المغرب الأقصى للسيادة العثمانية.

السفراء المغاربة في لندن، مما ساهم في دعم سياسة أحمد المنصور التحررية والندية تجاه القوى الإقليمية ،أنظر : عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، مرجع سابق، ص ص. 115-120

[1] عمار بن خروف، مرجع سابق ،ص ص. 194-196

وهكذا يتضح أن العلاقات السعدية العثمانية في عهد أحمد المنصور تجاوزت منطق الصدام العسكري والخلاف السياسي الضيق، لِتتحول إلى منافسة رمزية ودبلوماسية محتدمة؛ حاول فيها كل طرف إثبات أسبقيته ومكانته العليا في العالم الإسلامي عبر توظيف الألقاب السيادية، والمراسلات الندية، والبعثات السفارية، فضلاً عن المشاريع التوسعية والمظاهر السلطانية المبهرة.

ج–أثر الصراع السعدي العثماني على المغرب الإسلامي

لم تَنْحَصِر نتائج الصراع بين السعديين والعثمانيين خلال القرن السادس عشر الميلادي في العلاقات السياسية بين الدولتين فقط، بل امتدت آثار هذا الصراع إلى مختلف مناطق المغرب الإسلامي، حيث ساهم التنافس بين الطرفين في إعادة تشكيل التوازنات السياسية والعسكرية والدبلوماسية داخل المنطقة المغاربية.

ففي المغرب الأوسط أدى تثبيت النفوذ العثماني بالجزائر إلى إنهاء الدولة الزيانية بصورة نهائية وتحول الجزائر إلى مركز سياسي وعسكري تابع للدولة العثمانية ترتب عنه تغير واضح في طبيعة السلطة بالمغرب الأوسط، حيث أصبحت الإدارة العسكرية العثمانية والقوات الانكشارية تشكل الأساس الرئيسي للحكم، في مقابل استمرار النظام السلطاني التقليدي بالمغرب الأقصى تحت الحكم السعدي.

ومن جهة أخرى، ساهم الصراع السعدي العثماني في ترسيم نوع من التوازن السياسي داخل المغرب الإسلامي، إذ فشل العثمانيون في إخضاع المغرب الأقصى بصورة مباشرة رغم تدخلهم في عدد من الأزمات السياسية الداخلية، كما لم يتمكن السعديون من توسيع نفوذهم شرقاً بصورة دائمة داخل المغرب الأوسط مما أدى إلى ظهور حدود سياسية غير معلنة بين الامتداد السعدي والمجال العثماني استمرت آثارها خلال المراحل اللاحقة من تاريخ المنطقة المغاربية.

وامتدت آثار هذه الصراعات مباشرة إلى الأوضاع الأمنية للقبائل والمناطق الحدودية، لا سيما المناطق المتاخمة لمدينة تلمسان، ووادي الشلف، والجهات الغربية لإيالة الجزائر؛ إذ تحولت هذه النطاقات الجغرافية إلى مسرح مستمر للتحركات العسكرية ومحاولات الاستمالة السياسية من قِبل السعديين والعثمانيين على

حد سواء وقد أسفر هذا التنافس المحموم عن اضطراب الاستقرار الأمني في كثير من الأحيان، وتعاظم دور الولاءات القبلية كعامل حاسم في الصراع الإقليمي المشترك[1]

في المقابل، ساهم استمرار استقلال المغرب الأقصى عن الدولة العثمانية في الحفاظ على خصوصية النظام السياسي المغربي مقارنة ببقية مناطق المغرب الإسلامي، فبينما خضعت الجزائر وتونس وليبيا للنفوذ العثماني المباشر بدرجات متفاوتة، ظل المغرب الأقصى محتفظاً بسلطته المركزية المستقلة ومؤسساته السياسية الخاصة.

وقد انعكس هذا الوضع على التطور الدبلوماسي للمغرب الأقصى خلال عهد أحمد المنصور السعدي، إذ أصبح المغرب يتعامل بصورة مستقلة مع القوى الأوروبية والإفريقية دون المرور عبر الدولة العثمانية. كما ساعد ذلك على بروز سياسة خارجية مغربية قائمة على التوازن بين القوى الدولية داخل البحر المتوسط وغرب إفريقيا.

ولم يتوقف الصراع السعدي العثماني عند حدود الشرعية الرمزية والسياسية، بل امتد ليعمق التنافس الاقتصادي في المنطقة المغاربية، وتحديدًا حول موانئ البحر الأبيض المتوسط ومسالك التجارة الصحراوية؛ حيث بذل السعديون جهودًا حثيثة للسيطرة على طرق تجارة الذهب القادمة من السودان الغربي، في حين ركز العثمانيون على حماية مصالحهم التجارية ونفوذهم العسكري البحري في إيالة الجزائر والسواحل المتوسطية[2].

كما دفع هذا التنافس الدولة السعدية إلى تطوير جيشها وأجهزتها الإدارية بصورة أكبر، خاصة بعد الاحتكاك المستمر بالنموذج العسكري العثماني. وقد ظهر ذلك في استعمال المدفعية وتطوير التنظيمات العسكرية خلال عهد أحمد المنصور، إضافة إلى الاستفادة من بعض الخبرات العسكرية المرتبطة بالعناصر العثمانية أو الأندلسية.

أدى استمرار الصراع السعدي العثماني إلى إجهاض فرص قيام وحدة سياسية شاملة في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس عشر، على الرغم من القواسم الدينية والثقافية المشتركة التي ربطت بين شعوب

[1] ناصر الدين سعيدوني، مرجع سابق ، ص. 46

[2] عمار بن خروف، المرجع نفسه، ص. 210

المنطقة؛ إذ انكفأت كل دولة على حماية مصالحها السياسية الضيقة وتثبيت نفوذها الخاص في المجال المغاربي.

وانعكست هذه الانقسامات سلباً على التوازنات الإقليمية، مما أتاح للقوى الأوروبية ـ وفي مقدمتها إسبانيا والبرتغال، ثم إنجلترا وفرنسا لاحقاً ـ فرصة سانحة لاستغلال التنافس السعدي العثماني، وتوظيفه لخدمة مآربها السياسية والتجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط وغرب إفريقيا[1].

على الرغم من طابع التوتر الذي غلب على العلاقات بين الطرفين، إلا أن هذا الصراع أدى، بصورة غير مباشرة، إلى الحفاظ على التنوع السياسي في ربوع المغرب الإسلامي. فقد ظل المغرب الأقصى بعيداً عن السيطرة العثمانية المباشرة في حين رسخ العثمانيون نفوذهم في المغرب الأوسط والمناطق الشرقية من المغرب العربي.

خاتمة الفصل الثاني :

يستخلص من تحليل موقف السعديين تجاه بني عثمان خلال القرن السادس عشر الميلادي أن علاقات الطرفين مرت بمراحل متعددة ومتشابكة، امتزج فيها الحذر السياسي بالمواجهة العسكرية، ثم بالتنافس على المستويين الدبلوماسي والرمزي. وقد انطلقت هذه العلاقات في خضم التحولات الكبرى التي شهدها المغرب الإسلامي إثر انهيار الدولة الزيانية وتمدد الوجود العثماني في المغرب الأوسط، مما دفع الدولة السعدية إلى تبني استراتيجية قائمة على حماية استقلال المغرب الأقصى وقطع الطريق أمام امتداد النفوذ العثماني غرباً.

وتكشف الوقائع التاريخية أن الصراع بين السعديين والعثمانيين لم يكن خطاً متصلاً أو حالة حرب دائمة، بل ارتبط بتغير موازين القوى داخل المغرب الإسلامي، وبطبيعة الأوضاع الدولية التي شهدها البحر المتوسط خلال ذات القرن. فالتدخل العثماني في قضية أبي حسون الوطاسي، ثم دعم عبد الملك السعدي للوصول إلى الحكم، كشفا بوضوح عن رغبة الدولة العثمانية في التأثير على السلطة السياسية بالمغرب الأقصى، بينما عمل السعديون جاهدين على صيانة استقلالهم السياسي وعدم التحول إلى ولاية عثمانية على غرار الجزائر وتونس.

[1] أحمد توفيق المدني، مرجع سابق، ص. 245

كما أظهرت الدراسة أن معركة وادي المخازن شكلت منعطفاً حاسماً في العلاقات بين الجانبين، حيث أسهم النصر السعدي على البرتغال في تعزيز مكانة الدولة السعدية في العالم الإسلامي ورفع المكانة السياسية والدبلوماسية لأحمد المنصور السعدي. وقد استغل المنصور هذه التحولات لبناء سياسة خارجية أكثر استقلالية، ترتكز على تحقيق التوازن بين القوى الدولية وتطوير العلاقات الدبلوماسية مع مختلف الأطراف، دون الخضوع للنفوذ العثماني.

ومن ناحية أخرى، لم يحتبس التنافس بين السعديين والعثمانيين في المجالين العسكري والسياسي، بل تعداه إلى الحيز الرمزي والدبلوماسي، إذ حاول كل طرف إثبات أهليته بالزعامة داخل فضاء العالم الإسلامي. وقد تجسد ذلك في الألقاب السياسية، والمراسلات، والسفارات، والمشاريع التوسعية التي تبنّاها الفريقان، خاصة في عهد أحمد المنصور الذي سعى إلى تقديم دولته كقوة إسلامية مستقلة ذات حضور إقليمي ودولي.

كما أسهم هذا الصراع في ترسيخ خصوصية المغرب الأقصى داخل الفضاء المغاربي، إذ حافظ على استقلاله السياسي ومؤسساته السلطانية رغم قوة الدولة العثمانية واتساع نفوذها في المشرق العربي وشمال إفريقيا.

وخلاصة القول، إن موقف السعديين من آل عثمان خلال القرن السادس عشر لم يكن مجرد رد فعل على التوسع العثماني، بل كان تعبيراً عن مشروع سياسي يهدف إلى صون سيادة المغرب الأقصى وتأكيد مكانته داخل المغرب الإسلامي، في مرحلة عرفت تحولات سياسية وعسكرية ودبلوماسية كبرى.

الفصل الثالث

تطور المواقف السعدية من العثمانيين خلال القرن السابع عشر الميلادي (1603م–1659م)

المبحث الأول:

أثر وفاة أحمد المنصور على المواقف السعدية تجاه العثمانيين

- الصراع بين أبناء أحمد المنصور وأثره على الدولة السعدية.
- الموقف العثماني من ضعف الدولة السعدية.
- تفكك الدولة السعدية ونهاية التوازن السياسي بالمغرب الإسلامي.

المبحث الثاني:

صعود الزوايا والقوى المحلية بالمغرب الأقصى

- صعود الزاوية الدلائية وتوسع نفوذها السياسي.
- الزاوية السملالية والصراع على الجنوب المغربي.
- موقف العثمانيين من القوى المحلية بالمغرب الأقصى.

المبحث الثالث:

نهاية الدولة السعدية وصعود الدولة العلوية

- الأزمة السياسية بالمغرب قبيل سقوط الدولة السعدية.
- مواقف الزوايا والقوى المحلية من النفوذ العثماني.
- تطور الموقف العثماني تجاه تفتت السلطة المركزية بالمغرب الأقصى.

تمهيد

تغيرت المواقف السعدية تجاه العثمانيين مع بداية القرن السابع عشر، خاصة بعد وفاة السلطان أحمد المنصور عام 1603م. هذا الحدث تسبب في فوضى سياسية كبيرة داخل المغرب الأقصى، وفتح الباب أمام صراعات طويلة بين أبناء المنصور وأمراء الأسرة السعدية. وقد أثرت هذه الفتنة مباشرة على طبيعة المواقف المتبادلة؛ حيث تراجع موقف الندّية والمنافسة القوية التي ميزت عهد المنصور، وظهرت مواقف ضعيفة نتيجة تراجع السلطة المركزية وزيادة التدخلات الخارجية.

فبعد وفاة أحمد المنصور، انقسم المغرب الأقصى إلى مراكز نفوذ متناحرة بين فاس ومراكش وسوس، ودخل أبناؤه في حروب مستمرة على السلطة. هذا الوضع أضعف الدولة السعدية وجعلها عاجزة عن اتخاذ مواقف خارجية قوية أو الحفاظ على نفس المستوى الدبلوماسي العالي الذي كان في أواخر القرن السادس عشر.

من جهتهم، تابع العثمانيون في الجزائر وإسطنبول هذه التطورات؛ ورغم أن ضعف السعديين أحيا فكرة بسط النفوذ التركي في المنطقة، إلا أن الموقف العثماني لم يتجه نحو غزو المغرب الأقصى مباشرة، بل فضل العثمانيون حماية مصالحهم في الجزائر ومراقبة الأوضاع بحذر.

وشهدت هذه المرحلة أيضاً تبدلاً في مواقف الطرفين؛ حيث قلّ التنافس الديني والرمزي حول الخلافة، وظهر الاهتمام أكثر بالمواقف الأمنية، وتأمين الحدود، وحفظ التوازنات الإقليمية. وفي ظل هذا الضعف السعدي، برزت قوى محلية جديدة مثل الزوايا الصوفية وبعض القبائل التي اتخذت مواقف مستقلة عن السلاطين، مما أدى إلى تفكك الدولة السعدية تدريجياً.

وسيتناول هذا الفصل أثر وفاة أحمد المنصور على المواقف السعدية تجاه العثمانيين، ثم دراسة تطور الموقف العثماني من هذا الضعف، وأخيراً أثر الصراعات الداخلية على التوازن السياسي حتى سقوط الدولة السعدية عام 1659م.

المبحث الأول

أثر وفاة أحمد المنصور على المواقف السعدية تجاه العثمانيين

أ – الصراع بين أبناء أحمد المنصور وأثره على الدولة السعدية

تسببت وفاة السلطان أحمد المنصور عام 1603م في دخول الدولة السعدية مرحلة اضطراب سياسي حاد، لعدم وجود نظام واضح لانتقال الحكم؛ مما فجّر صراعاً طويلاً على السلطة أثر مباشرة على استقرار المغرب الأقصى ومواقفه الخارجية في المنطقة.[1] وتجلى هذا التصدع في انقسام البلاد بين أبناء المنصور؛ حيث أعلن زيدان[2] نفسه سلطاناً في مراكش، وسيطر أبو فارس[3] على فاس، بينما فرض المأمون[4]نفوذه في المناطق الشمالية. وأدى هذا التعدد في مراكز السلطة إلى صياغة مواقف سياسية وعسكرية متباينة، اعتمدت فيها كل جهة على تحالفات قبلية خاصة لتثبيت حكمها.

---

[1] عمار بن خروف، مرجع سابق، ص. 238

[2] السلطان زيدان السعدي (ت 1627م) :هو أبو المعالي زيدان الناصر بن أحمد المنصور، من أبرز سلاطين الدولة السعدية في مرحلة الانقسام والضعف تولى الحكم بمراكش عقب وفاة والده عام 1603م، ودخل مباشرة في حروب مريرة ومستمرة ضد إخوته (المأمون وأبو فارس) وضد حركات التمرد المحلية كحركة "أبي محلي" والزاوية الدلائية.وقد انعكست هذه الأزمات الداخلية على مواقفه السياسية والدبلوماسية؛ فبسبب حاجته الماسة لدعم جبهته بمراكش، اضطر إلى تبني مواقف مهادنة وتوازنات حذرة مع الجزائر والباب العالي، متخلياً عن لغة الندّية والمنافسة الرمزية الشديدة التي ميزت موقف والده أحمد المنصور، ليركز جهده على استرجاع عاصمته وتثبيت سلطته المهددة. أنظر: أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج 6، ص ص. 15–22

[3] أبو فارس عبد الله السعدي (ت 1609م) :هو أحد أبناء السلطان أحمد المنصور السعدي، وأحد الأطراف الرئيسية في صراع الإخوة الذي فجّر الأوضاع الداخلية في المغرب الأقصى عقب وفاة والده عام 1603م. وقد اتخذ أبو فارس من مدينة فاس في البداية مركزاً لتحركاته وبسط نفوذه، ودخل في مواجهات عسكرية وسياسية محتدمة ضد شقيقيه زيدان والمأمون. وانعكست هذه النزاعات المباشرة على مواقفه السياسية وموقعه الدبلوماسي؛ إذ تحول من موقع القوة والندية الإقليمية إلى الانكفاء الداخلي والبحث عن تحالفات قبلية لدعم جبهته المهددة، مما أسهم في إضعاف الموقف السعدي العام وعجزه عن الحفاظ على السيادة الدبلوماسية الموحدة في منطقة المغرب الإسلامي حتى مقتله خنقاً في مراكش.أنظر: أحمد بن خالد الناصري: المرجع نفسه ،ص ص 12–16

[4] الشيخ المأمون السعدي (ت 1613م) :هو أبو العباس أحمد المأمون بن أحمد المنصور، وأحد الأقطاب الثلاثة في صراع الإخوة المرير الذي أعقب وفاة والده عام 1603م. فرض نفوذه في البداية على المناطق الشمالية وفاس، وتميزت مواقفه السياسية والدبلوماسية بالتطرف والاضطراب نتيجة رغبته الجامحة في حسم العرش لصالحه؛ حيث دفعه ضعف موقفه العسكري أمام أخيه زيدان إلى اتخاذ

ولم يتوقف الصراع عند أمراء البيت السعدي، بل امتد لِيؤثر على مواقف القبائل والزوايا والقوى المحلية؛ إذ استغلت هذه الكيانات وهن السلطة المركزية لتوسيع نفوذها. فبينما اتجهت قبائل سوس نحو دعم السلطة السعدية بمراكش شهدت مناطق الشمال والأطلس تذبذباً وتغيراً مستمراً في مواقفها وتحالفاتها تبعاً لتطورات الصراع بين الأمراء المتنافسين.

كما لعبت بعض الزوايا دوراً مهماً خلال هذه المرحلة، خاصة الزاوية الدلائية[1] التي بدأت تفرض حضورها السياسي والديني بالمغرب الأوسط، مستفيدة من ضعف الدولة السعدية وتراجع نفوذ السلطة المركزية. و تحولت الزوايا خلال القرن السابع عشر الميلادي إلى واحدة من أبرز القوى المؤثرة في توجيه المواقف السياسية داخل المغرب الأقصى؛ وجاء هذا الصعود النفوذي بعد مرحلة حاسمة في عهد السلطان أحمد المنصور، الذي نجح خلالها في فرض هيبة السلطة المركزية وكبح الطموحات السياسية لتلك المؤسسات الدينية، مبقياً إياها تحت الرقابة المباشرة للدولة[2].

ومن جهة أخرى، أثرت هذه الصراعات على الوضع الاقتصادي والتجاري بالمغرب الأقصى، خاصة بعد اضطراب طرق التجارة بين المدن الكبرى وتراجع مداخيل الدولة السعدية. كما أدى تعدد مراكز السلطة

موقف دبلوماسي خطير تمثل في الاستنجاد بملك إسبانيا "فيليب الثالث"، ووصل الأمر إلى تسليمه ثغر "العرائش" للمسيحيين عام 1610م مقابل الدعم العسكري. هذا الموقف الانبطاحي أفقده الشرعية الشعبية والدينية داخل المغرب الأقصى، وعمّق من عزلة السلطة السعدية المركزية، مما فسح المجال لبروز مواقف قوية ومعارضة من الزوايا والعلماء ضد حكمه حتى اغتياله على يد حلفائه من القبائل. أنظر: المرجع نفسه ، ص ص 24-3

[1]. الزاوية الدلائية :هي حركة صوفية ومؤسسة دينية وسياسية مغربية بارزة، أسسها الشيخ أبو بكر بن محمد الدلائي (ت 1612م) في جبال الأطلس المتوسط. استغلت الزاوية ضعف السلطة السعدية المركزية بعد وفاة أحمد المنصور عام 1603م لتوسيع نفوذها، فتحولت من مجرد مركز روحي وعلمي إلى قوة عسكرية وسياسية كبرى حكمت أجزاء واسعة من المغرب الأقصى (خاصة فاس والمناطق الوسطى). تميزت مواقفها السياسية بالسعي لتوحيد البلاد ومواجهة الأخطار الخارجية؛ ودخلت في صراع مباشر مع الأمراء السعديين في مراكش ومع عثمانيي الجزائر حول مناطق النفوذ والحدود الشرقية، وظلت تمثل الموقف الحاكم والمهيمن في وسط المغرب حتى سقوطها على يد العلويين عام 1668م. أنظر: محمد الصغير الإفراني، المرجع السابق، ص ص. 215-220

[2] عمار بن خروف، العلاقات بين الجزائر والمغرب، ص. 248

إلى إضعاف الجيش السعدي وتراجع قدرة الدولة على فرض الأمن والاستقرار داخل مختلف المناطق المغربية

حاول السلطان زيدان السعدي الحفاظ على موقعه باعتباره الوريث الشرعي لأحمد المنصور، غير أن استمرار النزاع مع إخوته أضعف سلطته بشكل كبير. كما واجه أزمات مالية وعسكرية متواصلة، الأمر الذي انعكس على مواقفه الخارجية ودفعه إلى تبني مواقف مهادنة، والاضطرار أحياناً إلى الاستعانة ببعض القوى الأجنبية وعقد اتفاقيات سياسية معها بهدف حماية عرشه المهدد[1].

وفي هذا الاطار شهدت العلاقات المغربية الأوروبية تطورات مهمة، خاصة بعد حادثة السفينة الفرنسية "لا لونا"[2] التي كانت تحمل جزءاً من أرشيف السلطان زيدان وأمواله قبل أن تستولي عليها إسبانيا سنة 1612م. وقد أحدثت هذه الحادثة أزمة سياسية ودبلوماسية مهمة، كما كشفت حجم الاضطراب الذي أصبحت تعيشه الدولة السعدية خلال هذه المرحلة.

ومن جهة أخرى، تابع العثمانيون هذه التطورات باهتمام، خاصة أن الصراع الداخلي السعدي أدى إلى تراجع قدرة المغرب الأقصى على لعب الدور السياسي نفسه الذي عرفه خلال عهد أحمد المنصور، غير

[1] أوجست كور(Auguste Cour) ، سقوط الدولة السعدية، ترجمة: عبد اللطيف الشاذلي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2004م، ص ص. 145-148.

[2] سفينة لا لونا: أو مركب نوتردام دي لا لونا :(Notre Dame de la Lune – هي السفينة الفرنسية الشهيرة التي ارتبطت بواحدة من أبرز الأزمات الدولية والدبلوماسية في عهد السلطان زيدان السعدي عام 1612م استأجر السلطان زيدان السعدي هذه السفينة من القبطان الفرنسي "دوكستلان" لنقل أمتعته، ومجوهراته، وخزانة كتبه الضخمة التي عُرفت لاحقاً بـ الخزانة الزيدانية من ميناء أسفي صوب ميناء أكادير (سانتا كروز) هرباً من ملاحقة الثائر أحمد بن محلي. إلا أن القبطان الفرنسي غدر بالسلطان السعدي وأبحر بالسفينة متوجهاً نحو فرنسا؛ وفي عرض البحر، اعترضت السفن القرصانية الإسبانية سفينة "لا لونا" واستولت على الحجارة الكريمة والصناديق المحملة بالمخطوطات والكتب النفيسة التي كانت تحويها. نقل الإسبان هذه الخزانة إلى الملك "فيليب الثالث"، وهي التي استقرت حتى اليوم في مكتبة دير "الإسكوريال"، أوجست كور، المرجع السابق، ص. 152

أن الدولة العثمانية لم تتدخل بصورة عسكرية مباشرة داخل المغرب خلال هذه المرحلة، ربما بسبب انشغالها بأوضاعها الداخلية وبصراعاتها العسكرية في أوروبا والمشرق.

كما ساهمت هذه التطورات في تغير طبيعة العلاقات السعدية العثمانية، إذ تراجع التنافس الرمزي القوي الذي ميز عهد أحمد المنصور، مقابل تصاعد الاهتمام بالقضايا الأمنية والحدودية داخل المغرب الإسلامي وأصبح همّ السعديين الأساسي خلال هذه المرحلة هو الحفاظ على السلطة داخل المغرب الأقصى أكثر من منافسة الدولة العثمانية على الزعامة السياسية أو الرمزية.

وقد استمرت هذه الصراعات لعقود طويلة، وأدت تدريجياً إلى تفكك السلطة السعدية وتراجع نفوذها داخل المغرب الأقصى، وهو ما مهد لاحقاً لصعود قوى سياسية ودينية جديدة ستلعب دوراً مهماً في تاريخ المغرب خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي.

ب– الموقف العثماني من ضعف الدولة السعدية

أفضى مقتل السلطان أحمد المنصور عام 1603م إلى دخول الدولة السعدية في مرحلة طويلة من الصراعات الأسرية بين أبنائه، وهو ما انعكس مباشرة على استقرار المغرب الأقصى وتبدل المواقف السياسية تجاه الدولة العثمانية .فبعد غياب السلطة المركزية، انقسمت البلاد بين مراكز نفوذ متعددة؛ حيث اتخذ زيدان السعدي من مراكش مقراً لحكمه، في حين فرض أبو فارس عبد الله نفوذه في فاس، بالتزامن مع ظهور قوى محلية أخرى حاولت استغلال هذا الانقسام لتثبيت قوتها في المنطقة[1] .

من جهتها، تابعت إيالة الجزائر هذه التحولات باهتمام بالغ؛ إذ أعاد ضعف البيت السعدي صياغة المواقف الأمنية للباب العالي حول تأمين الحدود الغربية للمغرب الأوسط، استغلت بعض القبائل والجماعات المسلحة تراجع الرقابة العسكرية للمغرب الأقصى لتبدأ في التحرك بحرية بين المجالين الجزائري والمغربي، مما جعل المواقف الحدودية بين الطرفين تدخل مرحلة جديدة من الحذر والترقب[2].

[1] عمار بن خروف، العلاقات بين الجزائر والمغرب، ص. 235

[2] ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق ، ص. 52

من ناحية أخرى، عرفت المرحلة واحدة من أخطر الأزمات السياسية التي عرفها المغرب السعدي، حين دخل السلطان محمد الشيخ المأمون في مفاوضات مع الإسبان من أجل الحصول على دعم سياسي وعسكري ضد خصومه الداخليين وقد انتهت هذه المفاوضات بتسليم مدينة العرائش[1] للإسبان سنة 1610م، وهو الحدث الذي أثار ردود فعل واسعة داخل المغرب الأقصى فقد اعتبر عدد من العلماء والزوايا أن تسليم مدينة إسلامية استراتيجية للقوى المسيحية يمثل مساساً بسيادة البلاد وتخلياً عن سياسة الجهاد التي ارتبطت بالدولة السعدية منذ بداياتها الأولى.

كما أدى هذا الحدث إلى تراجع مكانة المأمون داخل المغرب، خاصة أن العرائش كانت من أهم الموانئ الأطلسية المغربية وأكثرها أهمية من الناحية العسكرية والتجارية.

تابع العثمانيون هذه التطورات بحذر شديد؛ إذ كشف تفريط المأمون في العرائش للإسبان حجم الوهن الذي ألمّ بالدولة السعدية عقب وفاة أحمد المنصور. كما أظهر هذا الحدث أن الصراع الأسري بين الأمراء أصبح يهدد التوازن السياسي والأمني في المغرب الإسلامي، ويفتح الباب واسعاً أمام تمدد التدخل الأوروبي على السواحل المغربية المتاخمة لإيالة الجزائر العثمانية[2].

امتنعت الدولة العثمانية عن التدخل العسكري المباشر داخل المغرب الأقصى رغم حالة الوهن التي أصابته، وفضّلت بدلاً من ذلك تبني مواقف دفاعية ركزت على تقوية معاقلها في المغرب الأوسط وحفظ استقرار إيالة الجزائر؛ إذ أدرك العثمانيون أن أي توغل ميداني في ظل الانقسامات السعدية والتمدد الإسباني سيجرّ جندهم إلى حرب استنزاف عسكرية وسياسية كبرى. وبالتزامن مع هذا الانكفاء،

---

[1]. العرائش :هي مدينة وثغر بحري مغربي إستراتيجي يقع على الساحل الأطلسي عند مصب وادي لوكوس شمال المغرب الأقصى. احتلت مكانة بالغة الأهمية في توجيه المواقف السياسية والدبلوماسية الإقليمية؛ شكّل تحصينها هاجساً أمنياً مشتركاً للسعديين والعثمانيين لمنع التمدد الإيبيري نحو الأطلسي وتأمين الغرب الإسلامي. ومع بداية القرن السابع عشر، تحولت المدينة إلى منعرج تاريخي حاسم بعدما اتخذ الأمير الشيخ المأمون موقفاً دبلوماسياً خطيراً بتسليمها لملك إسبانيا "فيليب الثالث" عام 1610م مقابل الدعم العسكري ضد إخوته، أنظر: عمار بن خروف، المرجع السابق، ص. 242؛ وينظر أيضاً: الناصري، المرجع السابق، ج 6، ص ص. 24-27

[2] عمار بن خروف، المرجع السابق، ص. 246.

شهدت هذه المرحلة صعود قوى محلية جديدة بالمغرب الأقصى، وفي مقدمتها الزاوية الدلائية التي نجحت في فرض نفوذها بالمناطق الداخلية مستغلةً ضعف السلطة المركزية، فوسعت حضورها وصاغت مواقف وتحالفات سياسية وعسكرية متينة مع القبائل والعلماء في فاس والأطلس المتوسط.

وفي المقابل، واصل السلطان زيدان السعدي جهوده للحفاظ على عرشه في مراكش، غير أن النزاعات المستمرة مع خصومه أضعفت قدرته على صياغة مواقف خارجية مؤثرة .وتفاقمت أزمة الدولة جراء اضطرابات اقتصادية وتجارية حادة، نتجت عن غياب الاستتباب الأمني وتشرذم المجال المغربي بين سلطات محلية متعددة ومتنافسة.

ساهم هذا الوضع في تزايد النفوذ الإسباني بالسواحل المغربية، خاصة بعد احتلال العرائش ثم المهدية لاحقاً، وهو ما أعاد قضية التدخل الأوروبي بقوة إلى المغرب الأقصى بعد أن كانت الدولة السعدية خلال عهد أحمد المنصور قادرة نسبياً على الحفاظ على توازنها الخارجي[1].

استمرت الدولة العثمانية في مراقبة التطورات المغربية دون محاولة ضم المغرب الأقصى بصورة مباشرة، إذ بدا واضحاً أن أولويات الباب العالي خلال النصف الأول من القرن السابع عشر أصبحت مرتبطة أساساً بالحفاظ على استقرار المجال العثماني القائم أكثر من التوسع غرباً.

كما أن تفكك الدولة السعدية أدى عملياً إلى انتهاء مرحلة المنافسة السياسية القوية التي ميزت العلاقات السعدية العثمانية خلال عهد أحمد المنصور. فلم يعد المغرب الأقصى يمثل القوة الإقليمية نفسها التي نافست العثمانيين دبلوماسياً ورمزياً خلال أواخر القرن السادس عشر الميلادي، بل أصبح يعيش مرحلة من الانقسام الداخلي والتراجع السياسي.

ويظهر أن الموقف العثماني من ضعف الدولة السعدية خلال القرن السابع عشر اتسم بالحذر والترقب، في وقت كانت فيه الدولة السعدية تدخل تدريجياً مرحلة التفكك السياسي التي ستنتهي بسقوطها النهائي سنة 1659م.

[1] محمد الصغير الإفراني، المرجع السابق، ص ص. 215-217.

ج–تفكك الدولة السعدية ونهاية التوازن السياسي بالمغرب الإسلامي

دخلت الدولة السعدية خلال النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي مرحلة متقدمة من التفكك السياسي نتيجة استمرار الصراعات بين الأمراء السعديين وتزايد نفوذ القوى المحلية والقبلية داخل المغرب الأقصى وقد أدى هذا الوضع إلى انهيار التوازن السياسي الذي كان قائماً خلال عهد أحمد المنصور، كما ساهم في تغير طبيعة العلاقات داخل المغرب الإسلامي بصورة عامة.

فبعد وفاة زيدان السعدي سنة 1627م استمرت النزاعات داخل الدولة، وتعاقب عدد من السلاطين على الحكم في ظروف اتسمت بالاضطراب وعدم الاستقرار. كما أصبحت السلطة الفعلية في عدد من المناطق بيد قوى محلية مستقلة نسبياً عن السلطة المركزية بمراكش أو فاس[1].

جسّدت الزاوية الدلائية في هذه المرحلة نموذجاً لأقوى الكيانات السياسية والدينية نفوذاً داخل المغرب الأقصى؛ إذ بسط الدلائيون سلطتهم على أجزاء واسعة من الأطلس المتوسط والأقاليم الداخلية. وبلغت مواقفهم التوسعية ذروتها بالنجاح في دخول مدينة فاس عام 1641م، مستغلين في ذلك وهن السلطة السعدية وانحسار فاعلية الجيش المركزي ومؤسسات الدولة بمراكش[2].

وقد شكل سقوط فاس بيد الدلائيين تحولاً مهماً في تاريخ المغرب خلال القرن السابع عشر، لأن العاصمة العلمية والسياسية للمغرب أصبحت خارج سيطرة الدولة السعدية بصورة فعلية. كما أظهر هذا الحدث حجم التفكك الذي وصلت إليه السلطة المركزية السعدية بعد عقود من الصراع الداخلي.

في المقابل شهد الجنوب المغربي صعود قوى محلية أخرى، خاصة الزاوية السملالية[3] بسوس، التي تمكنت من فرض نفوذها على المجال الصحراوي والتجارة الجنوبية. وقد أدى ذلك إلى انقسام المغرب الأقصى بين عدة سلطات متنافسة، الأمر الذي أضعف الدولة السعدية بصورة نهائية.

---

[1] محمد الصغير الإفراني، المرجع السابق، ص ص. 215-217.

[2] أحمد بن خالد الناصري، المرجع السابق ، ص ص. 66-68

[3] الزاوية السملالية وتُعرف بـ إمارة تازروالت :هي حركة صوفية ومؤسسة دينية وسياسية مغربية بارزة، أسسها الشيخ أحمد بن موسى السملالي في منطقة سوس بجنوب المغرب الأقصى، وبرزت كقوة حكم فعلية بزعامة حفيده علي بن محمد بو دميعة (ت 1659م).

كما استمرت القوى الأوروبية في استغلال هذا الوضع، خاصة إسبانيا التي حافظت على وجودها بعدد من الثغور الساحلية المغربية و أصبح المغرب خلال هذه المرحلة مجالاً للتنافس بين القوى المحلية والتدخلات الخارجية في ظل غياب سلطة مركزية قوية قادرة على إعادة توحيد البلاد.

وعلى العكس مما كان يحدث في المغرب الأقصى حافظت الدولة العثمانية على استقرار نسبي داخل إيالة الجزائر سمح بالحفاظ على تفوقها السياسي والعسكري داخل المغرب الإسلامي خلال النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي، خاصة بعد تراجع القوة السعدية التي كانت تمثل خلال عهد أحمد المنصور منافساً حقيقياً للنفوذ العثماني بالمنطقة.

بيد أن العثمانيين لم يسعوا إلى استثمار تهاوي الدولة السعدية لضم المغرب الأقصى بشكل مباشر، بل فضلوا الاستمرار في تركيز نفوذهم داخل حدود المغرب الأوسط. ويبدو أن طبيعة المجال الجغرافي المغربي وتشابك تعقيداته القبلية والسياسية الداخلية، جعلا خيار التدخل العسكري المباشر أمراً مكلفاً مالياً وبشرياً، وغير مضمون النتائج بالنسبة لصنّاع الموقف السياسي في الباب العالي بإسطنبول وساهم استمرار الانقسام الداخلي بالمغرب في ظهور حاجة متزايدة إلى سلطة جديدة قادرة على إعادة توحيد البلاد وإنهاء حالة الفوضى السياسية. وقد مهد هذا الوضع تدريجياً لصعود الدولة العلوية خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي، خاصة مع ظهور المولى الرشيد[1] الذي استطاع توحيد أجزاء واسعة من المغرب وإسقاط القوى المنافسة.

استغلت الحركة السملالية تدهور السلطة السعدية المركزية بعد عام 1603م لتأسيس إمارة مستقلة قوية وتميزت مواقفها السياسية بالطموح التوسعي الكبير؛ حيث بسطت نفوذها على إقليم سوس بالكامل والمناطق الصحراوية، وتحكمت في طرق التجارة ومرافئ الجنوب (مثل مرسى ماسة). كما اتخذت مواقف ندّية وعسكرية ضد سلاطين مراكش السعديين وضد منافسيهم من الزاوية الدلائية، وامتدت طموحات السملاليين لتشمل محاولات ربط صلات تجارية ودبلوماسية مستقلة مع القوى الأوروبية، حتى قُضي على كيانهم السياسي مع صعود الدولة العلوية .

[1] السلطان المولى الرشيد (ت 1672م) :هو أول سلاطين الدولة العلوية بالمغرب الأقصى الذين تمكنوا من توحيد البلاد وإعادة تأسيس سلطة مركزية قوية عقب حقبة الفوضى والانقسام التي تلت سقوط السعديين.انطلقت تحركاته العسكرية والسياسية من شرق المغرب (وجدة والريف)، واقترنت مسيرته بصياغة مواقف حازمة وذكية تجاه العثمانيين في الجزائر؛ حيث حرص في بداية أمره على مهادنتهم لتأمين ظهره أثناء حروبه الداخلية لإسقاط الكيانات المستقلة كالزاوية الدلائية والسملاليين. وبعد تصفية هذه القوى المحلية ودخوله فاس

وفي سنة 1659م انتهت الدولة السعدية رسمياً بعد مقتل آخر سلاطينها أحمد العباس[1]، وهو الحدث الذي شكل نهاية مرحلة سياسية مهمة في تاريخ المغرب الأقصى. كما أدى سقوط الدولة السعدية إلى انتهاء مرحلة طويلة من العلاقات السياسية والصراعات التي ربطت السعديين بالدولة العثمانية منذ القرن السادس عشر الميلادي.

وقد خلفت هذه المرحلة آثاراً عميقة على المغرب الإسلامي، إذ ساهم الصراع السعدي العثماني في تكريس الانقسام السياسي بين المغرب الأقصى والمغرب الأوسط، كما حافظ المغرب على استقلاله عن الدولة العثمانية رغم فترات الضعف والانقسام التي عرفها خلال القرن السابع عشر.

إن تفكك الدولة السعدية لم يكن نتيجة عامل واحد فقط، بل نتيجة تداخل الصراعات الداخلية والتدخلات الخارجية وتراجع السلطة المركزية، مما أدى إلى انهيار الدولة السعدية وظهور مرحلة سياسية جديدة بالمغرب الأقصى مع بداية العهد العلوي.

ومراكش، تحول موقفه السياسي إلى الندّية الصارمة؛ فعمل على تحصين الحدود الشرقية للمملكة، ومنع أي تمدد لعثمانيي الجزائر نحو تراب المغرب الأقصى، مما رسخ سيادة الدولة العلوية الناشئة. أنظر: عمار بن خروف، المرجع السابق، ص ص. 275-278

[1] أحمد العباس السعدي (ت 1659م) :هو آخر سلاطين الدولة السعدية بالمغرب الأقصى، وتولى الحكم بمراكش في ظل مرحلة بلغت فيها الدولة أقصى درجات الضعف والانقسام السياسي. اتسم عهده بالعجز التام عن صياغة أي مواقف خارجية أو دبلوماسية مؤثرة، حيث انحصرت سلطته الفعلية داخل أسوار العاصمة مراكش، بينما تقاسمت القوى المحلية كالزاوية الدلائية والسملاليين وبنو معقل بقية أقاليم البلاد. وقد انتهى حكمه ومعه تاريخ الدولة السعدية نهائياً عام 1659م إثر مقتله على يد أخواله من شيوخ قبائل الشبانات (بقيادة عبد الكريم بن أبي بكر الشباني) الذين استولوا على مراكش، مما فجّر أزمة حكم حادة مهدت الطريق لاحقاً لظهور مواقف سياسية وعسكرية حاسمة من قِبل الأشراف العلويين لتوحيد المغرب. أنظر: المرجع نفسه، ص. 262 .

المبحث الثاني

أ– صعود الزاوية الدلائية وتوسع نفوذها السياسي

مكَّن ضعف الدولة السعدية خلال النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي من ظهور قوى محلية جديدة استطاعت استغلال حالة الانقسام السياسي والتراجع العسكري الذي عرفه المغرب الأقصى بعد وفاة أحمد المنصور. ومن أبرز هذه القوى الزاوية الدلائية التي تحولت تدريجياً من مؤسسة دينية ذات نفوذ روحي محدود إلى قوة سياسية وعسكرية مؤثرة داخل المغرب[1].

ظهرت الزاوية الدلائية[2] بمنطقة الأطلس المتوسط، خاصة بمجال دلاء القريب من خنيفرة الحالية، واستفادت منذ بدايتها من علاقتها بعدد من القبائل الأمازيغية بالمناطق الجبلية. كما اعتمدت على شبكة من الطلبة والعلماء والمريدين الذين ساهموا في توسيع نفوذها الديني والاجتماعي داخل المغرب الأوسط.

مع تصاعد الصراعات بين الأمراء السعديين بعد سنة 1603م بدأت الزاوية الدلائية تتدخل بصورة متزايدة في الشؤون السياسية، خاصة بعد تراجع نفوذ السلطة المركزية بفاس ومراكش. وقد تمكن محمد الحاج الدلائي[3] من توحيد عدد من القبائل حول الزاوية وتحويلها إلى قوة سياسية تمتلك نفوذاً عسكرياً واضحاً داخل مناطق الأطلس والمغرب الأوسط.

---

[1] محمد الصغير الإفراني، المرجع السابق ، ص ص. 215–218..

[2] الزاوية الدلائية :هي طريقة صوفية ومؤسسة دينية مغربية بارزة، تأسست في جبال الأطلس المتوسط على يد الشيخ أبي بكر بن محمد الدلائي (ت 1612م). استغلت الزاوية الفراغ السياسي الذي أعقب وفاة السلطان أحمد المنصور عام 1603م لتوسيع نفوذها، فتحولت تدريجياً من مركز روحي وعلمي محلي إلى قوة سياسية وعسكرية نافذة نجحت في السيطرة على أجزاء واسعة من المغرب الأقصى، ودخلت عاصمته العلمية فاس عام 1641م. وتميزت مواقفها السياسية والعسكرية بالندية الواضحة؛ حيث اصطدمت ميدانياً مع السلاطين السعديين الأواخر بمراكش، ودخلت في مناوشات حدودية مباشرة مع الجزائر حول خطوط التماس الشرقية، حتى انتهى كيانها السياسي بالكامل مع صعود الدولة العلوية عام 1668م. أنظر: الإفراني، المرجع السابق، ص ص. 215–218.

[3] محمد الحاج الدلائي :هو أمير وشيخ الزاوية الدلائية، وأبرز قادتها الذين حولوها من طريقة صوفية إلى إمارة سياسية وعسكرية حكمت شمال ووسط المغرب الأقصى في النصف الأول من القرن السابع عشر. استغل تفكك الدولة السعدية ليدخل مدينة فاس عام 1641م، وتميزت مواقفه السياسية والحدودية بالندية؛ حيث خاض صداماً عسكرياً مباشراً مع الجزائر في "معركة القاعة" عام 1652م

وفي أربعينيات القرن السابع عشر شهد نفوذ الدلائيين توسعاً كبيراً، خاصة بعد تزايد الاضطرابات داخل الدولة السعدية وعجز السلاطين السعديين عن فرض سيطرتهم على مختلف مناطق البلاد. وقد استغل الدلائيون هذا الوضع للتقدم نحو فاس، حيث تمكنوا سنة 1641م من دخول المدينة وفرض نفوذهم عليها.

لقد مثل سقوط فاس[1] بيد الدلائيين حدثاً مهماً في تاريخ المغرب خلال القرن السابع عشر، لأن العاصمة العلمية والسياسية للمغرب أصبحت خارج السلطة السعدية بصورة فعلية. كما أظهر هذا الحدث حجم التراجع الذي عرفته الدولة السعدية بعد أن كانت خلال عهد أحمد المنصور قادرة على الحفاظ على وحدة البلاد وإخضاع مختلف القوى المحلية.

سعى الدلائيون إلى تقديم أنفسهم كقوة بديلة قادرة على إعادة الاستقرار للمغرب الأقصى بعد سنوات من الفوضى والانقسام؛ ولذلك حرصوا على كسب تأييد العلماء والأعيان في فاس، وتأمين مسالك التجارة، وبناء تحالفات متينة مع القبائل المجاورة. ورغم هذه الجهود، أثار التمدد الدلائي قلق عدة قوى محلية، لا سيما الزوايا المنافسة والقبائل التي رفضت الخضوع لسلطتهم. وفي الوقت نفسه، واصل السلاطين السعديون بمراكش ـ رغم ضعفهم الشديد ـ محاولاتهم لاستعادة نفوذهم المفقود في فاس والمناطق الوسطى، مما أدى إلى استمرار النزاعات العسكرية والسياسية واضطراب المواقف الأمنية في البلاد[2].

دفاعاً عن مناطق نفوذه وجباية القبائل، حتى سقطت إمارته على يد العلويين عام 1668م. أنظر: الإفراني، المرجع السابق ، ص. 218.

[1] فاس :هي العاصمة العلمية والروحية التاريخية للمغرب الأقصى، وشكّلت واحدة من أهم الحواضر المحورية في صياغة المواقف السياسية والعسكرية المتبادلة بين السعديين والعثمانيين .خلال القرن السادس عشر، كانت المدينة مسرحاً للتدخل العثماني المباشر لدعم بني وطاس عام 1554م، ثم نقطة الانطلاق لحملة رمضان باشا لتنصيب عبد الملك السعدي عام 1576م. ومع بداية القرن السابع عشر، تحولت فاس إلى مركز رئيسي للانقسام السياسي بعد أن اتخذها الأمير أبو_فارس عبد الله، ثم الشيخ المأمون، قاعدة لمواجهة سلطة مراكش، مما أضعف الموقف السعدي الموحد .وبسبب تراجع حيوية مؤسساتها الدفاعية، تتابعت عليها القوى المحلية حتى نجح الأمير محمد الحاج الدلائي في دخولها وإخضاعها عام 1641م، لتظل العاصمة الفعلية لإمارته حتى وحد البلاد الأشراف العلويون . أحمد بن خالد الناصري، المرجع السابق، ص ص. 12–15، وص. 66

[2] عمار بن خروف، العلاقات بين الجزائر والمغرب، ص ص. 254–256

وبالمغرب الأوسط تعاملت الدولة العثمانية مع صعود الدلائيين بحذر، خاصة أن ضعف السلطة السعدية وتوسع القوى المحلية كانا يؤثران بصورة مباشرة على التوازن السياسي داخل المغرب الإسلامي. غير أن الأتراك لم يقيموا علاقة مباشرة مع الزاوية الدلائية، بل اكتفوا بمراقبة التطورات السياسية داخل المغرب الأقصى دون تدخل عسكري مباشر.

كما ساهم صعود الدلائيين في تعميق حالة الانقسام داخل المغرب، إذ أصبح المجال المغربي موزعاً بين عدة قوى متنافسة:

- السلطة السعدية بمراكش،
- الدلائيون بالمغرب الأوسط وفاس،
- الزاوية السملالية بالجنوب،
- إضافة إلى نفوذ القبائل والزوايا المحلية ببعض المناطق الأخرى .

وقد أدى هذا الوضع إلى تراجع السلطة المركزية بصورة غير مسبوقة، كما ساهم في اضطراب الأوضاع الاقتصادية والتجارية نتيجة تعدد مراكز النفوذ والصراعات المستمرة بين القوى المتنافسة.

وعلى الرغم من النجاح السياسي الذي حققته الزاوية الدلائية خلال هذه المرحلة، فإنها لم تتمكن من بناء دولة مركزية قوية قادرة على توحيد المغرب الأقصى بصورة دائمة، خاصة بسبب الطبيعة الدينية والقبلية لتحالفاتها، إضافة إلى استمرار الصراعات مع القوى المحلية الأخرى.

ب– الزاوية السملالية والصراع على الجنوب المغربي

بالتوازي مع صعود الزاوية الدلائية، شهد الجنوب المغربي خلال النصف الأول من القرن السابع عشر بروز قوة محلية أخرى تمثلت في الزاوية السملالية (إمارة تازروالت) والتي نجحت في فرض نفوذها على مناطق واسعة من سوس والصحراء مستغلةً وهن السعديين وتفكك سلطتهم المركزية بمراكش.

وقد ارتبط ظهور السملاليين في البداية بالمكانة الروحية والدينية للزوايا داخل إقليم سوس، غير أن الانقسامات التي تلت وفاة أحمد المنصور دفعت هذه المؤسسة الصوفية إلى تبني مواقف سياسية وعسكرية متزايدة في المنطقة ومع استمرار النزاعات بين الأمراء السعديين وانشغال القصر بحروبه الأسرية، اتجهت مواقف القبائل الجنوبية والتجار الصحراويين نحو البحث عن قوة إقليمية بديلة، قادرة على تأمين مسالك القوافل وحماية الاستقرار في المجال الجغرافي الجنوبي للمملكة.وفي هذا الاطار تمكن أبو حسون السملالي[1] من توسيع نفوذ الزاوية تدريجياً عبر التحالف مع عدد من القبائل السوسية والسيطرة على المراكز التجارية المرتبطة بالقوافل الصحراوية. كما استفاد السملاليون من تراجع الحضور السعدي بالمناطق الجنوبية بعد انتقال مركز الصراع السياسي نحو فاس ومراكش.

وقد ساعدت السيطرة على طرق التجارة الصحراوية السملاليين على بناء قوة اقتصادية مهمة، خاصة مع ارتباط الجنوب المغربي بتجارة الذهب والعبيد والملح القادمة من السودان الغربي و أصبحت بعض الموانئ الجنوبية، خاصة ميناء أكادير، ذات أهمية كبيرة في النشاط التجاري خلال هذه المرحلة.

من جهة أخرى، شهدت هذه الفترة تصاعد الصراع بين السملاليين وبعض القوى المحلية الأخرى حول السيطرة على سوس والمجال الصحراوي. فقد حاولت السلطة السعدية استعادة نفوذها بالمناطق الجنوبية

[1] أبو حسون السملالي :هو علي بن محمد بن أحمد بن موسى السملالي، ويُعرف بـ "بودميعة ."يعتبر المؤسس الفعلي لـ إمارة تازروالت (إمارة إيليغ) في إقليم سوس بجنوب المغرب الأقصى. استغل تفتت الدولة السعدية بعد وفاة أحمد المنصور عام 1603م ليتجاوز النفوذ الروحي لزاويته ويؤسس كياناً سياسياً واقتصادياً مستقلاً. تميزت مواقفه السياسية والحدودية بالندية والتوسع؛ حيث بسط نفوذه على درعة وسجلماسة، وتحكّم في تجارة الذهب مع السودان الغربي. ودخل في منافسة مباشرة مع بقايا السعديين والزاوية الدلائية، وتوفي عام 1659م قبيل سقوط إمارته بالكامل على يد العلويين. محمد الصغير الإفراني، المرجع السابق، ص. 222

في أكثر من مناسبة، غير أن ضعفها العسكري والانقسامات الداخلية حدّا من قدرتها على إخضاع الزاوية السملالية بصورة نهائية[1].

كما دخل السملاليون أحياناً في صراعات غير مباشرة مع الدلائيين بسبب التنافس على النفوذ داخل المغرب الأقصى، خاصة مع محاولة كل طرف توسيع مجاله السياسي مستفيداً من انهيار السلطة المركزية. وقد أدى ذلك إلى تعميق حالة الانقسام داخل البلاد وتحول المغرب إلى مجموعة من المجالات السياسية المتنافسة.

تابعت القوى الأوروبية هذه التطورات باهتمام، خاصة أن ضعف الدولة السعدية وتعدد القوى المحلية بالمغرب خلق ظروفاً مناسبة لتوسيع النشاط التجاري والتدخل السياسي بالسواحل الأطلسية وحاول بعض التجار الأوروبيين إقامة علاقات مباشرة مع القوى المحلية المسيطرة على الجنوب المغربي من أجل ضمان استمرار المبادلات التجارية.

أما الدولة العثمانية، فقد ظلت بعيدة نسبياً عن الصراعات الداخلية بالجنوب المغربي، إذ كان اهتمامها مركزاً أساساً على استقرار إيالة الجزائر ومراقبة المجال الحدودي الشرقي للمغرب الأقصى[8]. غير أن استمرار تفكك الدولة السعدية كان يصب بصورة غير مباشرة في مصلحة العثمانيين، لأنه أنهى أي إمكانية لعودة المغرب السعدي كقوة سياسية منافسة داخل المغرب الإسلامي.

ومن جهة أخرى، أدى توسع نفوذ السملاليين إلى تراجع إضافي في مكانة السلطة السعدية، خاصة بعد فقدان الدولة السيطرة على جزء مهم من المجال الصحراوي والتجارة الجنوبية. كما أصبحت مراكش نفسها تعاني من ضعف الموارد المالية والعسكرية مقارنة بما كانت عليه خلال عهد أحمد المنصور[9].

ساهم هذا الوضع في تحويل الجنوب المغربي إلى مجال شبه مستقل عن السلطة المركزية خلال النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي، حيث أصبحت الزوايا والقبائل المحلية هي الفاعل الأساسي في تدبير الأوضاع السياسية والاقتصادية بالمناطق الجنوبية وبالرغم من أن الزاوية السملالية تمكنت من بناء

[1] عمار بن خروف، المرجع السابق، ص. 254..

نفوذ قوي داخل سوس والصحراء، فإنها لم تستطع بدورها توحيد المغرب أو بناء سلطة مركزية مستقرة، خاصة بسبب استمرار الانقسامات القبلية وتعدد القوى المتنافسة داخل البلاد. ولذلك بقي المغرب الأقصى يعيش حالة من التفكك السياسي إلى غاية صعود الدولة العلوية خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي.

ج– موقف العثمانيين من القوى المحلية بالمغرب الأقصى

أدى تفكك الدولة السعدية خلال النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي إلى ظهور واقع سياسي جديد داخل المغرب الأقصى، لم تعد فيه السلطة المركزية قادرة على التحكم في مختلف مناطق البلاد كما كان الحال خلال عهد أحمد المنصور، هذا الواقع جعل الدولة العثمانية تتابع هذه التحولات باهتمام، خاصة مع صعود قوى محلية مثل الزاوية الدلائية والزاوية السملالية وتزايد نفوذ القبائل والزوايا بالمجال المغربي.

في هذه المرحلة أصبحت إيالة الجزائر تمثل مركز المتابعة العثمانية للأوضاع المغربية، حيث كان باشوات الجزائر يراقبون التطورات السياسية بالمغرب الأقصى، خصوصاً بالمناطق القريبة من تلمسان والحدود الغربية للمغرب الأوسط وكانوا يدركون أن استمرار ضعف الدولة السعدية يضمن عملياً غياب قوة مغربية قادرة على تهديد النفوذ العثماني بالجزائر كما حدث خلال القرن السادس عشر.

وامتنعت الدولة العثمانية عن تبني سياسة التدخل العسكري المباشر داخل المغرب الأقصى، على الرغم من حالة الانقسام السياسي الحاد التي أصابته. والظاهر أن الباب العالي كان يرى أن طبيعة التضاريس المغربية وصعوبة إخضاعها، فضلاً عن تعدد الكيانات المتنافسة محلياً، عوامل تجعل من خيار الغزو العسكري مغامرة مكلفة وغير مضمونة النتائج لصنّاع **الموقف السياسي** في إسطنبول وعاصمتها الإقليمية الجزائر[1] ، غير أن هذا لا يعني غياب الاتصالات السياسية غير المباشرة بين العثمانيين وبعض القوى المحلية المغربية فقد حاول بعض الزعماء المحليين والأمراء السعديين أحياناً الاستفادة من العلاقة مع الجزائر

[1] عمار بن خروف، المرجع نفسه، ص. 260.

العثمانية من أجل تقوية مواقعهم داخل الصراعات المغربية الداخلية كما لجأت بعض القبائل والجماعات الحدودية إلى التنقل بين النفوذين المغربي والعثماني بحسب تطور موازين القوى.

ظهر هذا الوضع بوضوح بعد سيطرة الزاوية الدلائية على فاس؛ إذ انقسم المغرب الأقصى بين سلطات متنافسة دون وجود حكومة مركزية قوية تجمع البلاد. وسمحت هذه الفوضى للعثمانيين بالحفاظ على تفوقهم السياسي في المنطقة دون حاجة لخوض حروب، لكنهم ظلوا يراقبون الأوضاع بحذر؛ خوفاً من ظهور قوة مغربية جديدة تعيد توحيد البلاد وتحيي مواقف المنافسة والندية التي كانت في عهد أحمد المنصور.

ولذلك، أبقت إيالة الجزائر على قوات عسكرية قوية في المناطق الغربية (مثل تلمسان ووهران) تحسباً لأي تغيير مفاجئ. كما تابعت إسطنبول والجزائر بقلق تزايد النفوذ والنشاط التجاري الأوروبي في الموانئ المغربية، لأنهم كانوا يدركون أن استمرار الانقسام الداخلي للمغرب سيفتح الباب لتدخل مسيحي أكبر يهدد أمن المنطقة المغاربية بأكملها[1].

ولم تنجح القوى المحلية المغربية، كالدلائيين أو السملاليين، في صياغة مواقف دبلوماسية مستقرة أو بناء تحالفات واضحة مع الدولة العثمانية؛ إذ انشغلت أساساً بنزاعاتها الداخلية ومساعيها لتوسيع نفوذها داخل المغرب الأقصى، دون الانخراط في مشروع سياسي مغاربي مشترك يرتبط بالباب العالي كما ساهم التباين الجغرافي والسياسي بين المغرب الأقصى وإيالة الجزائر العثمانية في استمرار الاستقلال المتبادل بين الطرفين؛ فرغم تصدع الجبهة السعدية، حافظ المغرب على خصوصيته السياسية والمذهبية حتى في أشد فترات التفكك والانقسام، متمسكاً بمواقفه الرافضة للتبعية الروحية أو السياسية للخارج .[2]

في النصف الثاني من القرن السابع عشر بدأت موازين القوى داخل المغرب تتغير تدريجياً مع صعود الدولة العلوية بقيادة المولى الرشيد، الذي استطاع توحيد أجزاء واسعة من البلاد والقضاء على عدد من القوى

[1] ناصر الدين سعيدوني، المرجع نفسه، ص. 56.

[2] المرجع نفسه، ص. 58

المحلية المنافسة وقد أعاد هذا التطور طرح مسألة العلاقات المغربية العثمانية من جديد بعد عقود من الانقسام السعدي.

وتكشف هذه التطورات عن طابع الحذر والبراغماتية الذي صبغ الموقف العثماني تجاه الزعامات المحلية بالمغرب الأقصى طيلة القرن السابع عشر؛ حيث ارتأت الإدارة العثمانية الاكتفاء بحفظ استقرار إيالة الجزائر وتتبع مجريات الساحة المغربية، منأيةً بنفسها عن التورط الميداني في نزاعات داخلية معقدة وغير مأمونة العواقب.

المبحث الثالث

نهاية الدولة السعدية وصعود الدولة العلوية

أ– الأزمة السياسية بالمغرب قبيل سقوط الدولة السعدية

وصلت الدولة السعدية في منتصف القرن السابع عشر إلى مرحلة السقوط النهائي، بسبب الحروب الداخلية الطويلة والإنقسام السياسي الذي بدأ بعد وفاة أحمد المنصور عام 1603م. وأدى صراع الأمراء وصعود الزوايا والقبائل إلى تفتت السلطة المركزية، وعجزها عن فرض النظام أو اتخاذ مواقف حازمة لحماية البلاد.

وخلال هذه الفترة، فقد السعديون السيطرة على أهم المراكز السياسية والاقتصادية؛ فنفوذهم انهار في مدينة فاس لصالح الزاوية الدلائية، وتوسعت الزاوية السملالية في مناطق سوس والجنوب، بينما بقيت العاصمة مراكش تعيش فوضى مستمرة وصراعات ضيقة داخل القصر.

وتزامن هذا الانهيار السياسي مع أزمة اقتصادية حادة بسبب قطع طرق التجارة، وتراجع سلطة الدولة على الموانئ وطرق قوافل الصحراء. وانتشرت الفوضى الأمنية وزادت الضرائب التي فرضتها القبائل المسلحة، مما أضعف شرعية الدولة السعدية تماماً أمام السكان.

في المقابل، استغلت القوى الأوروبية هذا الضعف؛ فاحتفظت إسبانيا بالموانئ المغربية التي تحتلها، وزاد النشاط التجاري الأوروبي على السواحل الأطلسية بعد عجز السعديين عن حماية مجالهم البحري. وبلغ

هذا التراجع ذروته عام 1654م عندما اتخذ الدلائيون موقفاً هجومياً لتوسيع نفوذهم بصورة أكبر بعد دخولهم مراكش لفترة مؤقتة، ما شكل ضربة قوية لما تبقى من السلطة السعدية. وثبت أنها فقدت عملياً القدرة على الدفاع عن عاصمتها التاريخية أو الحفاظ على وحدة البلاد.

كما شهدت هذه المرحلة احتدام الصراع داخل مراكش نفسها بين بقايا السلطة السعدية وبعض القيادات العسكرية والقبلية، مما ضاعف من حدة الاضطراب السياسي وأضعف مواقفهم الدفاعية ونتيجة لذلك، انحصر نفوذ السلطة السعدية خلال سنواتها الأخيرة في مجال ضيق للغاية، عجزت بسببه عن صياغة مواقف سياسية أو عسكرية قوية تمكنها من إعادة توحيد المغرب الأقصى، أو كبح جماح القوى المحلية الصاعدة .[1]

في خضم هذا التجاذب السياسي والانهيار الذي عرفته الدولة السعدية ظهرت الأسرة العلوية[2] بمنطقة تافيلالت وشرعت في توسيع نفوذها تدريجياً داخل الجنوب الشرقي للمغرب.

وقد استفاد العلويون من مكانتهم الدينية باعتبارها أسرة شريفة إضافة إلى الموقع الاستراتيجي المرتبط بالطرق التجارية الصحراوية، من أجل بناء قاعدة سياسية وعسكرية متنامية.

كما ساعد ضعف السعديين والصراع بين الدلائيين والسملاليين على فتح المجال أمام العلويين للتوسع خارج تافيلالت. وقد بدأ المولى محمد بن الشريف[3] ثم ابنه المولى الرشيد في بناء تحالفات قبلية وعسكرية مهدت لاحقاً لقيام الدولة العلوية.

---

[1] أحمد بن خالد الناصري، المرجع السابق، ص ص. 144-146.

[2] الأسرة العلوية : أسرة تدعي نسبها لآل البيت ، استقرت بمنطقة تافيلالت (سجلماسة) بشرق المغرب الأقصى. برزت كقوة سياسية وعسكرية حاسمة خلال منتصف القرن السابع عشر الميلادي، مستفيدة من انهيار الدولة السعدية وتفكك البلاد بين الزوايا والقبائل. أنظر: أنظر: أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج 7، ص ص. 5-12

[3] المولى محمد بن الشريف (ت 1664م) :هو أول شيوخ وقادة الأشراف العلويين الذين نهضوا بالعمل السياسي والعسكري في منطقة تافيلالت (سجلماسة) بشرق المغرب الأقصى. بويع عام 1640م في ظل أجواء التفكك التي صاحبت احتضار الدولة السعدية وصعود الزوايا. تميزت مواقفه السياسية والحدودية بالجرأة والاندفاع التوسعي، حيث نجح في السيطرة على طرق التجارة الصحراوية، وزحف بجنده نحو الشمال والشرق فدخل وجدة وتلمسان. ودخل في صدام عسكري مباشر مع العثمانيين في الجزائر الذين توجسوا

تابعت الدولة العثمانية صعود الأشراف العلويين بحذر شديد؛ خاصة أن تهاوي الدولة السعدية كان يطوي صفحة القوة المغربية التي ناصبت النفوذ العثماني العداء ونافسته رمزياً خلال القرن السادس عشر ومع ذلك، امتنعت عن التدخل المباشر في المعترك المغربي الداخلي، واكتفت بالحفاظ على استقرار إيالة الجزائر وتبني مواقف رقابية ترصد التحولات الجارية في المغرب الأقصى .وفي سنة 1659م، سقطت الدولة السعدية رسمياً عقب مقتل السلطان أحمد العباس، آخر سلاطين الأسرة، وهو الحدث المفصلي الذي أنهى حقبة سياسية كاملة من تاريخ المغرب الحديث. وفجر هذا السقوط مرحلة تاريخية جديدة، تميزت بصعود الأسرة العلوية التي نجحت في إعادة تشكيل المواقف السياسية والعسكرية، وبناء السلطة المركزية الموحدة في البلاد .

ب– مواقف الزوايا والقوى المحلية البديلة من النفوذ العثماني (1603م–1659م)

نتج عن ضعف الدولة السعدية وانقسامها بعد وفاة أحمد المنصور عام 1603م اختفاء "الموقف الرسمي الموحد" للمغرب الأقصى. هذا الفراغ السياسي شجع الزوايا والقبائل على صعود مسرح الأحداث، لتتولى بنفسها صياغة مواقف مستقلة تجاه جيرانهم العثمانيين في الجزائر. ولم تكن هذه القوى مجرد جماعات دينية تنعزل في زواياها، بل تحولت إلى بدائل سياسية وعسكرية دافعت بقوة عن استقلال المغرب الأقصى ورفضت الخضوع للباب العالي العثماني

.1موقف الزاوية الدلائية والصدام العسكري مع العثمانيين:

بعد أن بسط الدلائيون نفوذهم على مناطق واسعة في وسط المغرب ودخلوا مدينة فاس عام 1641م، بدأ أميرهم محمد الحاج الدلائي يتبنى مواقف ندّية وصارمة لحماية حدود إمارته الناشئة ضد أي تمدد عثماني. وظهر هذا التوتر بوضوح في المناطق الحدودية الشرقية (قرب وادي ملوية[1])؛ حيث رفض

خيفة من طموحاته، فاصطدم معهم في معارك عدة انتهت بعقد "اتفاقية وادي تافنة" الشهيرة لترسيم الحدود. واستمر في قيادة جبهته حتى مقتله في معركته ضد أخيه المولى الرشيد عام 1664م. أنظر: أحمد بن خالد الناصري، المرجع السابق، ج 7، ص ص. 12-16

[1]وادي ملوية: نهر حدودي تاريخي وجغرافي هام ينبع من جبال الأطلس ويصب في البحر الأبيض المتوسط شرق المغرب الأقصى.

الدلائيون محاولات ديوان الجزائر فرض السيطرة أو جباية الضرائب من القبائل المتاخمة للحدود. وتطور هذا الموقف إلى صدام حربي مباشر في "معركة القاعة[1]" عام 1652م، حيث قاد محمد الحاج الدلائي جيشه لمواجهة القوات العثمانية القادمة من الجزائر، وتمكن من تثبيت سلطته الميدانية، مؤكداً قدرة القوى المحلية المغربية على اتخاذ مواقف عسكرية حازمة تحمي استقلال البلاد .

.2موقف الزاوية السملالية والتحكم في المحاور الاقتصادية الجنوبية:

في جبهة الجنوب، اتخذ أبو حسون السملالي (بودميعة)، مؤسس إمارة تازروالت في سوس، مواقف استقلالية حذرة ارتكزت على القوة الاقتصادية والتجارية. فقد أدرك السملاليون أن الحفاظ على استقلال الجنوب المغربي يتطلب السيطرة الكاملة على طرق القوافل الحيوية؛ لذلك نجحوا في مد نفوذهم نحو درعة وسجلماسة (تافيلالت)، وتحكموا في تجارة الذهب والريش القادمة من السودان الغربي وبموجب هذا الموقف الاقتصادي القوي، نجح السملاليون في حرمان العثمانيين من أي فرصة لمد نفوذهم نحو الموانئ الجنوبية أو طرق التجارة الأطلسية، وحافظوا على خصوصية مذهبية وسياسية نأت بجنوب المغرب تماماً عن التبعية الإقليمية للباب العالي العثماني .

شكل هذا الوادي خط التماس الإستراتيجي والفصل الجغرافي الأكثر حساسية في مسار المواقف السياسية والعسكرية والحدودية المتبادلة بين المغرب والجزائر؛ ففي عهد أحمد المنصور، كان حوض ملوية منطقة رقابة صارمة لمنع التمدد التركي. ومع تفكك الدولة السعدية في القرن السابع عشر، تحول مجرى الوادي والمناطق المتاخمة له إلى مسرح للصدامات المباشرة بين القوى المحلية البديلة والعثمانيين؛ وتجلى ذلك في "معركة القاعة" عام 1652م عندما زحف أمير الزاوية الدلائية محمد الحاج الدلائي بجنده نحو وادي ملوية لمنع جيش الجزائر العثماني من جباية ضرائب القبائل المستوطنة هناك.أنظر: أحمد بن خالد الناصري ،المرجع السابق ، ج6،ص 72

[1] معركة القاعة (1652م) :هي مواجهة عسكرية حدودية وقعت قرب خط وادي ملوية بشرق المغرب الأقصى، و بين جيش الزاوية الدلائية بقيادة الأمير محمد الحاج الدلائي وقوات إيالة الجزائر العثمانية.اندلعت المعركة إثر خلاف حاد حول السيادة وجباية الضرائب من القبائل المستقرة في مناطق التماس الحدودية، حيث اتخذ الدلائيون موقفاً لمنع التوغل التركي في عمق التراب المغربي مستغلين غياب السلطة السعدية المركزية. وانتهت المواجهة بانتصار ميداني لصالح الدلائيين، مما ساهم في تثبيت حدودهم الشرقية وأجبر العثمانيين على تبني مواقف أكثر حذراً وترقباً تجاه هذه القوة المحلية البديلة. أنظر: عمار بن خروف، المرجع السابق، ص. 255

ج– تطور الموقف العثماني تجاه تفتت السلطة المركزية بالمغرب الأقصى (1603م–1659م)

انعكس غياب الموقف السعدي المركزي الموحد بعد عام 1603م بشكل مباشر على طريقة صياغة المواقف السياسية والأمنية للدولة العثمانية في المنطقة؛ حيث اضطر الباب العالي في إسطنبول، وعاصمته الإقليمية ديوان الجزائر، إلى إعادة تقييم إستراتيجيتهم في الغرب الإسلامي للتعامل مع واقع المغرب الأقصى الجديد الذي تقاسمته الزوايا والقبائل المتناحرة .

على الرغم من أن التفكك الداخلي للمغرب الأقصى كان يمثل فرصة سانحة تاريخياً لمد النفوذ العثماني غرباً، إلا أن الموقف العثماني الرسمي تميز بالتحفظ التام والابتعاد عن خيار الغزو العسكري المباشر. وكان صناع القرار في إيالة الجزائر يدركون بدقة أن طبيعة الجغرافيا المغربية المعقدة، والتركيبة القبلية الرافضة للتبعية، وتعدد الكيانات المسلحة (كالزوايا)، ستجعل من التدخل العسكري المباشر حرب استنزاف مكلفة جداً مالياً وبشرياً وغير مضمونة النتائج فاختاروا التريث والبراغماتية .

بدلاً من الهجوم، تحول الموقف العثماني إلى التموقع الدفاعي الصارم؛ حيث ركزت إيالة الجزائر جهودها العسكرية على تحصين وتأمين ثغور المغرب الأوسط الغربية، لا سيما في تلمسان ووهران ومحيط وادي الشلف. لمنع انتقال الفوضى المغربية وتنقل القبائل البدوية بحرية عبر خطوط التماس، كما تابعت الجزائر وإسطنبول بقلق شديد تصاعد النفوذ والنشاط التجاري الإسباني والأوروبي في الموانئ الساحلية المغربية (خاصة بعد سقوط العرائش عام 1610م) متأكدين من أن استمرار الفراغ السياسي في المغرب قد يساعد في التمدد المسيحي الذي يهدد أمن شمال إفريقيا بأكمله .

خاتمة الفصل الثالث

شكلت الحقبة التاريخية الممتدة بين عامي (1603م - 1659م) منعرجاً حاسماً أعاد رسم ملامح المواقف السياسية والدبلوماسية في الغرب الإسلامي؛ فبوفاة السلطان أحمد المنصور، انطوت صفحة الموقف المغربي الموحد والندّية الصارمة، لتلج المنطقة مرحلة جديدة اتسمت بتفتت السلطة المركزية السعدية وانقسام المجال بين أمراء البيت الواحد والقوى المحلية الناشئة. وقد أدى هذا الصراع الأسري المحتدم بين الإخوة زيدان وأبي فارس والمأمون إلى تلاشي الموقف الرسمي للدولة، مما دفع ببعض الأمراء إلى

اتخاذ مواقف اضطرارية مهادنة أو استنجادية بالقوى الأجنبية، وتجلى ذلك بوضوح في موقف الشيخ المأمون الذي فرط في ثغر العرائش للإسبان عام 1610م مقابل الدعم العسكري، وهو الموقف الذي أفقد السلطة شرعيتها الدينية والشعبية وعجل بتفككها. وبسبب هذا الفراغ الإداري، تصدرت الزوايا المشهد السياسي لتلعب دور البديل الإستراتيجي الحامي لخصوصية السيادة المغربية؛ حيث صاغت الزاوية الدلائية بزعامة محمد الحاج الدلائي مواقف نديّة صارمة تجاه النفوذ العثماني في المغرب الأوسط، تجسدت ميدانياً في الصدام العسكري المباشر ودحر القوات العثمانية في "معركة القاعة" عام 1652م عند وادي ملوية لمنعهم من جباية ضرائب القبائل الحدودية، في حين اتخذت الزاوية السملالية بسوس مواقف اقتصادية مستقلة مكنتها من احتكار تجارة الذهب والقوافل الصحراوية، محصنةً جنوب المغرب الأقصى من أي شكل من أشكال التبعية الإقليمية. وفي المقابل، اتسم الموقف العثماني الرسمي الصادر من إسطنبول وديوان الجزائر بالحذر والبراغماتية السياسية؛ فبالرغم من الجاذبية التاريخية التي شكلها انهيار السعديين للتوسع غرباً، إلا أن العثمانيين أحجموا عن التدخل العسكري المباشر لتفادي حرب استنزاف جبلية وقبلية غير مضمونة النتائج، وفضلوا تبني مواقف دفاعية ورقابية ركزت على تحصين تلمسان ووهران ومتابعة النشاط الأوروبي الساحلي خوفاً من اختلال التوازن الإقليمي. وتأسيساً على ذلك، ينجلي المشهد التاريخي لعام 1659م عن إسدال الستار رسمياً على الدولة السعدية بمقتل آخر سلاطينها أحمد العباس ، مخلّفة وراءها فراغاً سياسياً مؤقتاً سرعان ما احتواه صعود الأشراف العلويين الذين أخذوا على عاتقهم إعادة بناء السلطة المركزية وصياغة مواقف سيادية جديدة في المنطقة

الخاتمة :

تُبرز دراسة الموقف السعدي من النفوذ العثماني بالمغرب الإسلامي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين أن العلاقات بين الطرفين لم تكن علاقات دينية بسيطة أو صراعاً مذهبياً كما قد توحي به بعض القراءات الاختزالية، بل كانت في جوهرها صراعاً سياسياً واستراتيجياً حول النفوذ والسيادة والشرعية داخل المجال المغاربي.

فقد جاء صعود الدولة السعدية في سياق تاريخي اتسم بضعف الكيانات السياسية التقليدية بالمغرب الإسلامي وتصاعد التوسع الإيبيري على السواحل المغاربية، وهو ما أتاح للسعديين بناء مشروع سياسي جديد قائم على توظيف النسب الشريف والدعوة إلى الجهاد ضد البرتغاليين من أجل توحيد المغرب الأقصى وإعادة بناء السلطة المركزية. وفي المقابل، ارتبط الوجود العثماني بالمغرب الأوسط بدايةً بمواجهة الخطر الإسباني، قبل أن يتحول تدريجياً إلى نفوذ سياسي وعسكري دائم من خلال تأسيس إيالة الجزائر وربطها المباشر بالباب العالي.

وقد أظهرت الدراسة أن الموقف السعدي من العثمانيين مرّ بعدة مراحل متباينة؛ إذ اتسم في البداية بالحذر والترقب نتيجة اشتراك الطرفين في مواجهة التوسع الإيبيري، غير أن توسع النفوذ العثماني بالمغرب الأوسط وتحوله إلى قوة حدودية قريبة من المغرب الأقصى دفع السعديين، خاصة في عهد محمد الشيخ السعدي، إلى تبني موقف أكثر تشدداً يقوم على رفض التبعية السياسية والدفاع عن استقلال المغرب الأقصى باعتباره آخر كيان سياسي مستقل بالمغرب الإسلامي.

كما بينت الدراسة أن قضية تلمسان والمجالات الحدودية شكلت محوراً رئيسياً في تطور الصراع السعدي العثماني، إذ تحولت المنطقة إلى مجال للتنافس السياسي والعسكري بين الطرفين، خاصة بعد سقوط الدولة الزيانية وظهور فراغ سياسي بالمغرب الأوسط. ولم يكن هذا الصراع مجرد نزاع حدودي، بل ارتبط كذلك بالتنافس حول الشرعية السياسية والرمزية؛ حيث اعتمد السعديون على شرعية النسب الشريف وإمارة المؤمنين، في حين استند العثمانيون إلى شرعية الخلافة الإسلامية وقيادة العالم الإسلامي السني.

وقد بلغ هذا التنافس ذروته خلال عهد السلطان أحمد المنصور الذهبي، الذي استطاع أن يفرض نوعاً من النّدية السياسية والدبلوماسية مع الدولة العثمانية مستفيداً من انتصار وادي المخازن، ومن نجاحه في

الخاتمة

إعادة بناء قوة الدولة السعدية داخلياً وخارجياً. غير أن هذا التوازن لم يدم طويلاً؛ إذ دخل المغرب الأقصى بعد وفاة المنصور سنة 1603م مرحلة من الصراعات الداخلية والتفكك السياسي، مما أدى إلى تغير طبيعة العلاقات السعدية العثمانية وانتقالها من مرحلة التنافس القوي إلى مرحلة الحذر والتوازن الأمني.

كما كشفت الدراسة أن العثمانيين، رغم متابعتهم الدقيقة لتطورات المغرب الأقصى، لم يتجهوا نحو احتلاله بصورة مباشرة خلال القرن السابع عشر الميلادي، بل فضّلوا الحفاظ على استقرار إيالة الجزائر ومراقبة الأوضاع المغربية من بعيد، خاصة في ظل تعقد التوازنات الداخلية بالمغرب الأقصى وتزايد التدخلات الأوروبية بالسواحل الأطلسية والمتوسطية.

ومن خلال المقارنة بين المصادر المغربية والعثمانية والجزائرية والأوروبية، يتضح أن كل رواية تاريخية حاولت تفسير العلاقات السعدية العثمانية من زاوية مرتبطة بخلفيتها السياسية والفكرية، وهو ما يفرض ضرورة التعامل النقدي مع المادة التاريخية وعدم الاكتفاء بالرواية الأحادية. وقد ساعد هذا التنوع المصدري في تقديم قراءة أكثر توازناً لطبيعة العلاقات بين الطرفين بعيداً عن الأحكام المسبقة أو التصورات الإيديولوجية الجاهزة.

وفي الأخير، يمكن القول إن العلاقات السعدية العثمانية شكلت إحدى أهم قضايا المغرب الإسلامي خلال العصر الحديث، لأنها لم تعكس فقط صراع دولتين متجاورتين، بل جسدت أيضاً أزمة بناء السلطة والشرعية داخل المجال المغاربي في مرحلة عرفت تحولات عسكرية وسياسية عميقة تحت ضغط التوسع الأوروبي والتنافس الإقليمي والدولي.

التوصيات

في ضوء ما توصلت إليه الدراسة، يمكن اقتراح التوصيات التالية:

1. إجراء مزيد من الدراسات المقارنة بين الروايات المغربية والعثمانية والأوروبية حول الصراع السعدي العثماني، للوصول إلى قراءة تاريخية أكثر موضوعية وشمولية.
2. الاهتمام بترجمة الوثائق العثمانية والأوروبية المتعلقة بالفترة السعدية، خاصة دفاتر المهمة والمراسلات الدبلوماسية، لإتاحتها للباحثين والدارسين.

3. دراسة دور الزوايا والقوى المحلية بشكل أعمق، لما لعبت من تأثير حاسم في توجيه المواقف السياسية والعسكرية خلال مراحل الضعف والتفكك.
4. توسيع البحث ليشمل المقارنة بين التجربة السعدية والتجارب السياسية الأخرى في المغرب الإسلامي (كالعلوية والحفصية والزيانية) لفهم آليات بناء الشرعية بشكل أشمل.
5. الاستفادة من المناهج الحديثة في التحليل التاريخي، كالمنهج الأنثروبولوجي لفهم ظاهرة التقديس والتبريك المرتبطة بالنسب الشريف، والمنهج الجيوسياسي لتحليل الصراعات الحدودية.
6. تشجيع الباحثين على دراسة الجوانب الاقتصادية والاجتماعية للصراع السعدي العثماني، التي طغى عليها الجانب السياسي والعسكري في الدراسات السابقة.
7. إنشاء قاعدة بيانات رقمية للمصادر والوثائق المتعلقة بالعلاقات السعدية العثمانية، تسهل الوصول إليها وتسهم في تطوير البحث التاريخي في هذا المجال.

الملاحق والجداول

الملحق :01–جدول زمني لأهم أحداث العلاقات السعدية العثمانية (1509م – 1659م)

السنة / التاريخ	الحدث	النوع	الأطراف المعنية	أبرز النتائج والأثار
1516م	وصول الإخوة عروج وخير الدين بربروس إلى مدينة الجزائر والاستيلاء عليها.	عسكري / سياسي	الإخوة بربروس – سكان الجزائر	بداية تأسيس القاعدة العثمانية في الجزائر لمواجهة الخطر الإسباني.
1519م	ارتباط الجزائر رسمياً بالدولة العثمانية وتحويلها إلى إيالة تابعة لها.	سياسي	خير الدين بربروس – السلطان سليم الأول	تعزيز الوجود العثماني في المغرب الأوسط، وتحول الجزائر إلى قاعدة عثمانية مهمة في البحر المتوسط.
1554–1549	سقوط مدينة فاس في يد السعديين وبداية انهيار الحكم الوطاسي.	عسكري / سياسي	السلطان محمد الشيخ السعدي – الدولة الوطاسية	توحيد المغرب الأقصى تحت راية السعديين، وقيام دولة مركزية قوية قادرة على مواجهة القوى الإقليمية.
1554–1550م	أزمة تلمسان والصراع السعدي العثماني حول السيطرة على المدينة .	عسكري / سياسي	الدولة السعدية – إيالة الجزائر	تنافس حاد بين الطرفين على مناطق النفوذ والمواقع الاستراتيجية، وانتهى بتأكيد النفوذ العثماني في المدينة مع استمرار التوتر الحدودي.
1554م	حملة صالح ريس العثمانية لدعم أبي حسون الوطاسي للوصول إلى حكم فاس.	عسكري	صالح ريس (الباشا) – أبو حسون الوطاسي	أول تدخل عثماني عسكري مباشر في شؤون الحكم بالمغرب الأقصى، لكن السعديين سرعان ما استعادوا السيطرة على فاس.
1557–1558م	حصار تلمسان واندلاع معركة وادي اللبن بين السعديين والعثمانيين.	عسكري	السلطان عبد الله الغالب السعدي – السلطان سليمان القانوني	نجاح السعديين في صد الهجوم العثماني وتأمين حدودهم الشرقية، مما عزز الاستقلال النسبي للمغرب الأقصى.

الملاحق

السنة / التاريخ	الحدث	النوع	الأطراف المعنية	أبرز النتائج والأثار
1561م	استمرار المناوشات بين حكام إيالة الجزائر العثمانية والسلطان السعدي.	عسكري / سياسي	إيالة الجزائر – الدولة السعدية	إعادة تنظيم الجيش السعدي وتعزيز الحدود الشرقية بعد معركة وادي اللبن.
1574-1576م	وصول الأمير عبد الملك السعدي إلى الحكم بدعم عثماني مباشر بقيادة رمضان باشا، والي الجزائر.	عسكري / سياسي	رمضان باشا (والي الجزائر) – عبد الملك السعدي	أخطر تدخل عثماني في المغرب الأقصى بتولي سلطان مدعوم من الباب العالي لسدة الحكم، مع بقاء القوات العثمانية في البلاد لفترة مؤقتة.
1578م	معركة وادي المخازن (معركة الملوك الثلاثة) بين السعديين والبرتغاليين.	عسكري	السلطان عبد الملك السعدي – أحمد المنصور – ملك البرتغال سيباستيان	انتصار حاسم للدولة السعدية، وإثبات قدرتها العسكرية، وتعزيز استقلاليتها ومكانتها كقوة إقليمية كبرى أمام القوى الأوروبية والعثمانية.
1591م	قيادة السلطان أحمد المنصور حملة عسكرية نحو السودان الغربي.	توسع اقتصادي / سياسي	الدولة السعدية – إمبراطورية سونغاي	السيطرة على طرق تجارة الذهب والقوافل الصحراوية، وتدفق الموارد المالية للدولة السعدية، وتوسيع نفوذها الإقليمي.
1603م	وفاة السلطان أحمد المنصور الذهبي.	سياسي	الدولة السعدية	بداية مرحلة الضعف والتفكك والصراعات الداخلية للدولة السعدية، مما أثر بشكل كبير على توازن القوى في المنطقة لصالح العثمانيين والقوى الأوروبية.
1610م	قيام الأمير السعدي المأمون بتسليم مدينة العرائش للإسبان مقابل دعم عسكري.	سياسي / دبلوماسي	الشيخ المأمون – إسبانيا	تسبب في أزمة شرعية وانتقادات واسعة من العلماء والزوايا، وتراجع مكانة السلطة السعدية المركزية، وزيادة التدخلات الأجنبية بالسواحل المغربية.

الملاحق

السنة / التاريخ	الحدث	النوع	الأطراف المعنية	أبرز النتائج والأثار
1641م	سيطرة الزاوية الدلائية بقيادة محمد الحاج الدلائي على مدينة فاس.	عسكري / ديني	الزاوية الدلائية – الدولة السعدية	أصبحت العاصمة العلمية والسياسية للمغرب خارجة عن سيطرة الدولة السعدية، مما جسد أقصى درجات التفكك والانهيار السياسي .
1659م	مقتل آخر السلاطين السعديين أحمد العباس، وانتهاء الدولة السعدية رسمياً.	سياسي	الدولة السعدية – الأشراف العلويون	سقوط الدولة السعدية، وبداية مرحلة جديدة من الصراع على السلطة والفراغ السياسي، مهدت لصعود الدولة العلوية لاحقاً.

1- ملاحظة :البيانات الواردة في هذا الجدول مستندة إلى أدلة أرشيفية ومصادر تاريخية موثقة، بهدف تقديم عرض زمني دقيق لأهم محطات العلاقات السعدية العثمانية.

الملحق 02:



Source gallica.bnf.fr / Bibliothèque nationale de France

يودوكوس هونديوس، «خريطة مملكتي فاس ومراكش»، أمستردام، مطلع القرن السابع عشر الميلادي، نسخة محفوظة بالمكتبة الوطنية الفرنسية.(Gallica)

الملحق 03:



Source gallica.bnf.fr / Bibliothèque nationale de France

أبراهام أورتيليوس، «خريطة مملكتي فاس ومراكش»، ضمن أطلس *مسرح العالم*، أنتويرب، 1570م، نسخة محفوظة بالمكتبة الوطنية الفرنسية.(Gallica)

الملحق 04:

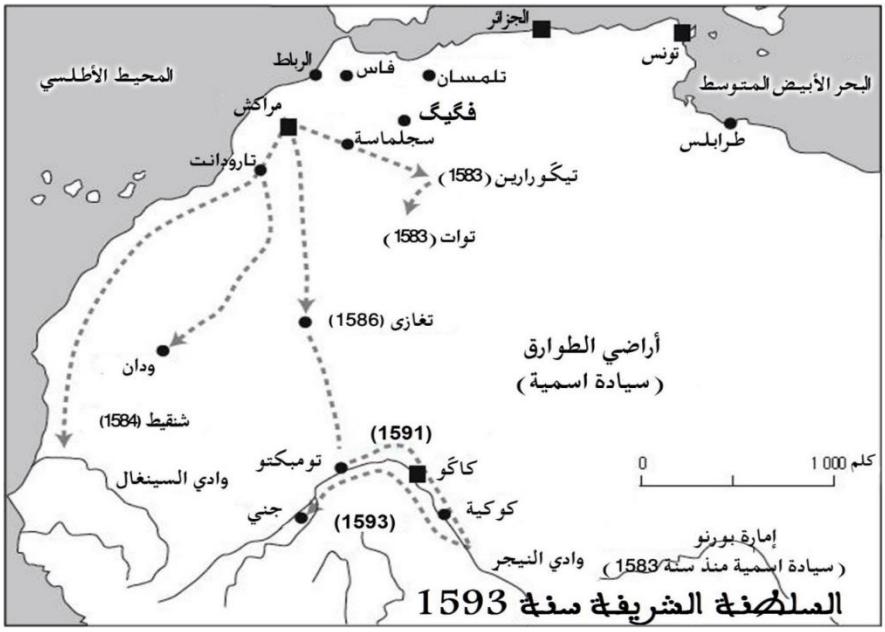

من كتاب :السلطان الشريف – الجذور الدينية والسياسية للدولة المخزنية في المغرب–محمد نبيل ملين –ص 383

الملحق 05:



Source gallica.bnf.fr / Bibliothèque nationale de France

نيكولا سانسون، «جزء من بلاد البربر حيث توجد مملكة الجزائر مع أقاليم بلاد الجريد وتكورارين والزاب وغيرها»، باريس، 1655م، محفوظة بالمكتبة الوطنية الفرنسية.(Gallica)

الملحق رقم :05

جدول سلاطين الدولة السعدية بالمغرب الأقصى (1510م – 1659م)

الرقم	السلطان	مدة الحكم
1	محمد القائم بأمر الله	1510-1517
2	أحمد الأعرج	1517-1544
3	محمد الشيخ	1544-1557
4	عبد الله الغالب بالله	1557-1574
5	محمد المتوكل	1574-1576
6	عبد الملك المعتصم بالله	1576-1578
7	أحمد المنصور الذهبي	1578-1603
8	أبو فارس عبد الله	1603-1608
9	زيدان الناصر	1608-1627
10	عبد الملك الثاني	1627-1631
11	الوليد بن زيدان	1631-1636
12	محمد الشيخ الصغير	1636-1655
13	أحمد العباس	1655-1659

المصدر: محمد الصغير الإفراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي؛ أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج5.

الملحق 06:



المصدر :محمد الصغير الإفراني، *نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي*؛ أحمد بن خالد الناصري، *الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى*، ج5؛ عبد العزيز الفيشتالي، *مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا*.

الملحق :07



خريطة تفسيرية من إعداد الباحث اعتمادًا على: الإفراني، *نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي*؛ الناصري، *الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى*، ج5؛ الفيشتالي، *مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا*؛ والدراسات الحديثة حول العلاقات السعدية العثمانية.

CEZAYİR'İN İYİ İDARESİ VE FAS HAKİMİYLE OLAN İLİŞKİLERDE İSLAM BİRLİĞİNE İTİNA GÖSTERİLMESİ

Cezayir idarecilerine, halkın ve memleketin korunarak iyi idare edilmesi, Fas Hakimiyle olan ilişkilerin din kardeşliği ve İslam Birliği hususu göz önünde tutularak yürütülmesi hakkında yazılan emir

صدور الأمر إلى القائمين بإدارة الجزائر بحماية الأهالي والبلاد وحسن إدارتها ومواصلة العلاقة مع حكام المغرب بمراعاة مسألة الروابط الدينية والوحدة الإسلامية

18

Kayd şod

Emîrü'l-ümerâi'l-kirâm kebîrü'l-küberâi'l-fihâm zü'l-kadr-i ve'l-ihtirâm sâhibü'l-izzi ve'l-ihtişâm el-muhtassu bi-mezîdi inâyeti'l-meliki'l-a'lâ Cezayir Beylerbeyisi ( ) dâme ikbâlühü ve kıdvetü'l-kuzât ve'l-hükkâm ma'denü'l-fazli ve'l-kelâm mevlânâ Cezayir kâdısı zîde fazluhü ve mefâhirü'l-ulemâi'l-muhakkikîn müftî ve ulemâ ve meşâyih zîde ilmühüm ve mefâhirü'l-emâcid ve'l-a'yân bi'l-cümle zâbitân ve rüesâ-yı murâbıtîn zîde mecdühûm ve mefâhirü'l-emâsil ve'l-akrân vücûh-ı ahâlî zîde kadrühüm tevkî'-i refî'-i hümâyûn vâsıl olıcak ma'lûm ola ki,

Millet-i Nasârâ'nın millet-i İslâmiyye haklarında kadîmden berü adâvet-i dîniyyeleri der-kâr olduğundan hudûd-ı İslâmiyye'nin ale'd-devâm takviye ve muhâfazaları esbâbı nesk ve tesviye husûslarına dikkat ehemm-i umûr-ı saltanat-ı [seniyyemden] olmağla bu esnâlarda dahi kılâ' ve husûn-ı rasîne-i Saltanat-ı Seniyyeme cüyûş-ı mütevâfire ve mühimmât ve levâzimât-ı harbiyye-i kâfiye tesbîliyle takviye ve tesdîd-i sugûr-ı İslâmiye'ye *bi-fazlillâhi te'âlâ* ikdâm ve muhâfaza-i beyzâ-yı dîn-i mübîne ihtimâm ve sa'y-ı mâ-dâm olmağın bu ihtimâmlar tedârik-i esbâb kabîlinden olup esbâb-ı mezkûrenin a'mâl ve icrâları tevfikât-ı ilâhiyyeye menût ve ol dahi her hâlde ve kâffe-i a'mâlde tahsîl-i rızâ-yı rabbü'l-âlemîne merbût olduğu bî-iştibâhdır bu sûretde Memâlik-i Mahrûsa-i mesâlik-i hüsrevânem serhaddâtında olan mücâhidîn ve murâbıtînin ale'd-devâm nehy-i ani'l-münkere ikdâm ve *bihi inne'd-dîne indallâhi'l-İslâm* nazm-ı kerîmiyle memdûh olan dîn-i mübînin selâmeti icrâ ile tahsîl-i rızâ-yı melik-i allâm ederek iktisâb-ı salâh-ı hâl eylemeleri dîn-i Muhammedî'nin ziyâde revnâk ve mehâbetine ve bu takrîb a'dâ-yı dîn üzerlerine gâlibiyete alâmet ve zerî'a

ve âlet olmak cihetiyle ekser-i guzât-ı mücâhidîn mecmâ‘ı olan serhaddâtımıza mücerred salâbet-i dîniyyeye delâlet ve irşâd için nush-âmiz evâmir-i aliyyem ısdârı cümleyi îkâza bir vesîle olduğundan iktizâsına göre lâzım gelen mahallere evâmir-i şerîfe ısdâr olunub Cezayir serhaddi dahi nezd-i Şâhânemde cümle serhaddâtdan mu‘teber ve ahâlîsi *bihi ve faddalallâhü’l-mücâhidîne ale’l-ka‘idîne ecren azîmâ* nazm-ı kerîminde mündemic olan fazîlete ve lâzıme-i salâbet ve gayret-i dîniyyeleri üzere *bihi ve câhidû fî-sebîlillâhu* emr-i zü’l-celâline imtisâlen gazâ ve cihâda ve i‘lâ-yı kelimetullâhi’l-ulyâya meks oldukları bedîhî ve azher olup dünyada tahsîl-i sermâye-i fazîlet ve ukbâda *bihi inne fi’l-cenneti miete derecetin e‘addehallâhu li’l-mücâhidîne fi-sebîlillâhu mâ-beyne’d-dürreteyni kemâ beyne’s-semâ-i ve’l-arz* hadîs-i şerîfinde mansûs mevâid-i cezîleye nâil oldukları zîver-efzâ-yı sahâyif-i tevârih olan gazevât ve mücâhedelerinden zâhirdir. *Bihî zâlike fazlullâhi yu’tîhi men-yeşâ.* Kaldı ki bazen hadâset-i sinn ve gençlik takrîbiyle hevâ-yı nefsâniyeden nâşî menhî-i anhâ olan fusûk u fücûra meyl ve rağbet eder olur ise *bihi el-ulemâ’u ümenâullâhi alâ-halkıhî* teşrîfiyle müşerref olan ulemâ-yı kirâm taraflarından *bihi ed-dînü’n-nasîha* muktezâsı üzere o makûlelere nush u pend olunarak zevâcir-i furkâniyeden *bihi ve cezâ’u seyyietin seyyietün mislühâ* ma‘nâları ve ehâdîs-i nebeviyyeden *bihi en-nâsü mücziyyûne bi-â’mâlihim* mefhûm-ı şerîfi üzere menhiyyâtda ısrâr edenler mücâzât-ı a‘mâllerini müşâhede ile nefslerine zulmetmiş olacakları beyân kılınarak tarîk-ı salâha irşâdlarına ve zâbitân ve ummâlden *bihî i‘dülû hüve akrebu li’t-takvâ* emr-i zü’l-celâline muhâlif zîr-i destân olan re‘âyâ fukarâsı haklarında ikâ‘-ı mezâlimi mûcib etvâra ibtidâr eder olur ise *bihi küllüküm râ‘in ve küllüküm mes’ûlü’n an-ra‘iyyetihi* mefhûmu üzere rûz-ı cezâda mes’ûl olacaklarını ve îfâ-yı farîza-i cihâd ve gazâ ile me’lûf kümât-ı muvahhidîne o makûle ef‘âl-i nâ-cesbân olduğunu ve *bihi ez-zulmü zulümâtün yevmi’l-kıyâme* hadîs-i şerîfi ma‘nâ-yı münîfini beyân ederek o misillü etvârdan men‘leriyle vedî‘atullah olan fukarâ-yı ra‘iyyetin âsûde-i mazalle-i emn ü istirâhat olmaları vesâilini istihsâle ve’l-hâsıl *bihi küntüm hayrun ümmetin ahracet li’n-nâsi ye’murûne bi’l-ma‘rûfi ve yenhevne ani’l-münker* nass-ı kerîmi muktezâsı üzere emr-i bi’l-ma‘rûf [ve] nehy-i ani’l-münker merâsimini dâimâ icrâ ederek tahsîl-i rızâullah ve rızâ-yı Şâhâneme ikdâm ve salâbet-i diniyye ve hamiyyet-i İslâmiyyeniz muktezâsı ve *bihi küllü mü’minîn ihvetün* mazmûnu üzere dîn karındaşlarınızı menhiyyât ve münkerâtdan muhâfaza ve sıyânete sarf-ı miknet [ve] etrâf ve enhânızda vâki‘ a‘dânızdan dâimâ teyakkuz ve intibâh lâzım olduğu ve cevânib ve havâlinizde ve karîb ve ba‘îdde olan dostlarınıza dahi dostluk ve muhabbetinizi izhâr muktezî ve ale’l-husûs Devlet-i Aliyyem ve tevâbi‘âtı tarafına meyl ve rükûn ile tarh-ı esâs-ı muhabbet ve ihlâs üzere olan hâlâ Fas hâkimi cenâb-ı imâret-meâb-ı eyâlet-nisâb-ı sa‘âdet-iktisâb mevlâ Muhammed *dâme mahfûzan bi-vikâyeti’s-samed* cenâblarına uhuvvet-i dîniyye ve ittihâd-ı milliyet-i İslâmiyye cihetiyle tarh-ı esâs-ı istînâs ve ülfet ve ri‘âyet hatırına dikkat ve zîr-i hükûmetde olan re‘âyâ ve ahâlîye bast-ı cenâh-ı hamiyyet olunmak lâbüd idüği muhakkak olmağla husûs-ı mezbûra dahi teşmîr-i sâ‘id-i miknet eylemeniz fermânım olmağın mahsûsan işbu emr-i şerîfim ısdâr ve ( ) ile irsâl olunmuşdur.

İmdî zât-ı hilâfet-simât-ı mülûkânem *bihi innâ ce‘alnâke halîfeten fi’l-arz* nazm-ı mübîni üzere halîfetü’l-Müslimîn olup *bihi fahküm beynne’n-nâsi bi’l-hakk* emr-i zü’l-celâliyle me’mûriyet der-kâr olduğundan vesâya-yı mezkûre-i hüsrevânemin kâffe-i bilâd-ı

الملاحق

İslâmiyye'de ve ale'l-husûs dârü'l-mücâhidîn olan Cezayir'de icrâsı nasb-ı ayn-ı ihtimâm-ı şehriyârânem olduğu siz ki mûmâ-ileyhimsiz ma'lûm-ı diyânet-melzûmunuz oldukda îfâ-yı levâzım-ı cihâdiyyeye taraflarınızdan her ne kadar ikdâm olunur ise bâlâda mastûr *emr-i bi'l-ma'rûf [ve] nehy-i ani'l-münker*e dahi ol mertebelerde ikdâm ve ihtimâm olundukca işleriniz rast ve amelleriniz dürüst olacağında *inşâallâhu'r-rahmân* iştibâh olmamağla cümlenizi zü'l-celâl hazretlerinin vikâye-i samedâniyesine emânet eyledim. Göreyim sizi rızâ-yı rabbü'l-müste'ân yoluna cehd-i tâmm-ı lâzımeden olduğunu tefattun ederek bir tarafdan i'lâ-yı kelîmetullah ve bir tarafdan def'-i mezâlim ve ref'-i fusûka ve dîn karındaşlarını tarîk-i salâha irşâda ve dâmen-i der-miyân-ı gayret ve hâkim-i müşârun-ileyhsin ve havâşî ve tevâbi'ât ve ahâlîlerinin cebr-i hâtırlarına ve kendi ile tarh-ı esâs-ı ülfet ve istînâsı nisâr-ı nakdîne-i liyâkat ve her hâlde meşkûrü'l-mesâ'î olmağla ve tahsîl-i rızâullâh ve rızâ-yı hüsrevâneme bezl-i küll-i miknet eylemeniz bâbında fermân-ı âlîşânım sâdır olmuşdur. Buyurdum ki,

Vusûl buldukda bu bâbda vech-i meşrûh üzere şeref-yâfte-i sudûr olan fermân-ı vâcibü'l-ittibâ' ve lâzımü'l-imtisâlimin mazmûn-ı itâ'at-makrûnuyla âmil olasız, şöyle bilesiz, alâmet-i şerîfe i'timad kılasız.

Tahrîren fî Evâil-i şehr-i Cemâziye'l-Evvel sene ihdâ ve mieteyn ve elf.

10 Cemâziye'l-evvel 1201 / [28 Şubat 1787]

84

أمر سلطاني عثماني يوصي مسؤولي إيالة الجزائر بمراعاة حسن العلاقة مع حاكم فاس والاهتمام بوحدة المسلمين، مما يعكس البعد الديني في السياسة العثمانية تجاه الدولة السعدية.

أنظر : الجزائر في الوثائق العثمانية، رئاسة دائرة الأرشيف العثماني، أنقرة، 2010، ص.ص 84.82

الملاحق

الملحق 09:

FAS HAKİMİ İLE KARDEŞLERİ ARASINDAKİ ANLAŞMAZLIĞIN CEZAYİR BEYLERBEYİ ARACILIĞIYLA GİDERİLMESİ

Cezayir-i Garb Beylerbeyi Hasan Paşa'nın, Fas hakimi Abdullah ile kardeşleri Şeyh Abdülmümin ve Şeyh Abdülkerim'in arasındaki anlaşmazlığın düzeltilmesi için gerekli çabayı göstermesi

تكليف بكلر بكى جزائر الغرب حسن باشا ببذل أقصى الجهود من أجل إزالة الخلاف بين حاكم المغرب عبد الله وأخويه الشيخ عبد المؤمن والشيخ عبد الكريم

Yazıldı. Âdemine virildi.

Fî 7 Ramazân sene 972

Halefü'l-emâcid ve'l-ekârim şerefü'l-mehâmid ve'l-mekârim el-muhtassu bi-mezîdi inâyeti'l-Meliki'd-Dâyim Şeyh Abdülmümin ve Abdülmelik dâme uluvvühümâya hüküm ki,

Hâliyâ Dergâh-ı Sa'âdet-destgâhımıza mektûbunuz vârid olup; "Fas hâkimi olan cenâb-ı emâret-meâb karındaşınız Abdullâh ile mâbeyniniz ıslâhı için vilâyetinin serhaddine vardığınızda üzerinize hücûmu mesmû'unuz olmağla yine Cezayir'e mürâca'at olunup Donanma-yı Hümâyûnumla mu'âvenet olunup muhassılü'l-âmâl olmak ricâsında olduğunuzu" i'lâm eylemişsiz. Mektûbunuzun mazmûn-ı meymûnunda münderic olan husûs bi-tafsîlihî izz-i huzûrumuza arzolunup ilm-i şerîfimiz muhît ve şâmil olmuşdur. Eyle olsa; ol diyârlarda vâki' olan cumhûr-ı Müslimînin refâhiyyeti ve küffâr-ı hâksârın mezelleti ve nikbeti için hâliyâ deryâya azîm Donanma-i Hümâyûnumuz irsâl olunup feth ve zabtı vâcib olan ba'zı kılâ'ın muhâsarası emrim olmuşdur. Ümmîddir ki; Hakk *sübhânehû ve te'âlâ* hazretlerinün ulüvv-i inâyet-i fütûh-bahşları ile Donanma-yı Nusret-karînimize feth ve zafer müyesser olup Cezayir ve Mısır yolundan küffâr-ı nâ-bekârun mazarrat ve fesâdı def'u ref' oluna. Buyurdum ki:

Hükm-i şerîf-i vâcibü'l-ittibâ'ım varıcak, Âsitâne-i Devlet-âşiyânımıza ilticânızı sermâye-i devlet bilip bu gazâ ahvâli ber-taraf olunca ârâmla âsûde-hâlde olup Cezayir-i Garb Beylerbeyisi Hasan Paşa *dâme ikbâlühû* kulum vech ü münâsib gördüğü üzere karındaşınızla müdârâdan hâlî olmayasız. *İnşâallâh* bu def'a bu gazâ-yı hümâyûn ahvâli itmâma

الجزائر في الوثائق العثمانية(Osmanlı Belgelerinde Cezayir) ، رئاسة الأرشيفات العثمانية، أنقرة، الوثيقة رقم A.DVNS.MHM.d.3، حكم رقم 1268، بتاريخ 7 رمضان 972هـ (1565م)، ص. 5.

الملاحق

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

ـأولا: المصادر

- ابن أبي دينار القيرواني .المؤنس في أخبار إفريقية وتونس .تحقيق محمد الشمام. المكتبة العتيقة، تونس، 1967.
- الإفراني، محمد الصغير بن الحاج عبد الله .نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي .تحقيق عبد اللطيف الشاذلي. مطبعة فضالة، المحمدية، 1998.
- بربروس، خير الدين .مذكرات خير الدين بربروس .ترجمة محمد دراج. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1980.
- التنسي، محمد بن عبد الله .نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان .تحقيق محمود بوعياد. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.
- الفيشتالي، عبد العزيز .مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا .تحقيق عبد الكريم كريم. منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1973.
- الوزان، الحسن بن محمد (ليون الإفريقي) .وصف إفريقيا .ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر. ط2. دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.
- مؤلف مجهول .تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية .تحقيق كولان. مدرسة العرفان، الرباط، 1934.
- الناصري، أحمد بن خالد .الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى .تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري. دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997. (5 أجزاء)

ـثانيا: المراجع العربية

- عزيز سامح .الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية .ترجمة محمود علي عامر. دار النهضة العربية، بيروت، 1989.
- إينالجيك، خليل .تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار .ترجمة شريف شاهين. دار المدار الإسلامي، بيروت، 2002.
- بورويبة، رشيد .تلمسان: عاصمة بني عبد الواد .المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
- التميمي، عبد الجليل* .بحوث وثائقية في التاريخ المغربي: تونس والجزائر وليبيا 1518-1830 .*مركز البحوث والدراسات العثمانية والموريسكية، تونس، 1985.

المصادر والمراجع

- التميمي، عبد الجليل .دفاتر المهمة العثمانية كالتاريخ الدبلوماسي للمغرب العربي .مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية، تونس، 1988.
- التميمي، عبد الجليل .دراسات في التاريخ العربي العثماني والمغاربي .مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية، تونس، د. ت.
- جوليان، شارل أندري .تاريخ إفريقيا الشمالية: تونس، الجزائر، المغرب .ترجمة محمد مزالي والبشير بن سلامة. الدار التونسية للنشر، تونس، 1969.
- حسن، إبراهيم شحاتة .العلاقات السياسية بين الدولة العثمانية والمغرب الأقصى .دار الفكر العربي، القاهرة، 1992.
- الجيلالي، عبد الرحمن بن محمد .تاريخ الجزائر العام .ج2. دار الثقافة، الجزائر، 1994.
- الزياني، أبو القاسم .الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً .تحقيق عبد الكريم الفيلالي. دار المعرفة، الرباط، 1991.
- سعيدوني، ناصر الدين .دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر: العهد العثماني .المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988.
- القدوري، عبد المجيد .المغرب وأوروبا في القرن السادس عشر: إشكالية التجاوز .منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1986.
- القندوسي، عبد العزيز .الحركة الصوفية وأثرها السياسي والجهادي في المغرب الإسلامي .دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2003.
- كريم، عبد الكريم .المغرب في عهد الدولة السعدية: دراسة في السياسة الداخلية والخارجية .ط3. شركة النشر والتوزيع المدارس، الرباط، 2006.
- كور، أوجست .(Auguste Cour) سقوط الدولة السعدية .ترجمة عبد اللطيف الشاذلي. مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2004.
- المدني، أحمد توفيق* .حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492م-1792م) .*المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
- مُلين، محمد نبيل .السلطان الشريف: الجذور الدينية والسياسية للدولة المخزنية في المغرب .ترجمة عبد الحق الزموري وعادل بنعبد الله. منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 2013.
- المنوني، محمد .مظاهر يقظة المغرب الحديث .دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985.

المصادر والمراجع

- أوزتونا، يلماز .تاريخ الدولة العثمانية .ترجمة عدنان محمود سلمان. مؤسسة فيصل للتمويل، إسطنبول، 1988.
- توفيق، أحمد .المجتمع المغربي في القرن السادس عشر: العهد السعدي .منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1989.
- التازي، عبد الهادي .التاريخ الدبلوماسي للمغرب: من أقدم العصور إلى اليوم .ج4. مطابع فضالة، المحمدية، د. ت.
- رزوق، محمد .الدولة السعدية وعلاقاتها الخارجية .أطروحة دكتوراه دولة. جامعة محمد الخامس، الرباط، 2004.
- عباد، صالح .الجزائر خلال العهد العثماني: الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية .دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، 2005.
- فيلالي، عبد العزيز .تلمسان في العهد الزياني: دراسة سياسية وعمرانية واجتماعية وثقافية .موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002.
- الفيلالي، عبد الكريم .التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير .شركة الطبع والنشر عين المديفر، الرباط، 2008.
- ولد السالم، حماة الله .تاريخ بلاد المغرب: دراسة في السياسة والمجتمع والثقافة .دار الكتب العلمية، بيروت، 2011.

ـثالثا: المصادر و المراجع الأجنبية

- Castries, Henri de. Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc. Première Série – Dynastie Saadienne. Tome I : Espagne. Ernest Leroux, Paris, 1905.
- Paul Geuthner. Sources inédites de l'histoire du Maroc. Première série, Dynastie Saadienne. Tome I., Paris, 1956.
- Charles-André Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, Payot, Paris, 1961.
- our, Auguste. *L'Établissement des dynasties des Chérifs au Maroc et leur rivalité avec les Turcs de la Régence d'Alger (1509-1830)*. Ernest Leroux, Paris, 1904.
- Cour, Auguste. *L'État Saadien jusqu'à la mort d'Ahmed el-Mansour*. Ernest Leroux, Paris, 1927.
- *Gellner, Ernest.* Saints of the Atlas. *Weidenfeld & Nicolson, London, 1969.*
- Grammont, Henri-Delmas de. *Histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1830)*. Ernest Leroux, Paris, 1887.
- *Julien, Charles-André.* Histoire de l'Afrique du Nord. *Payot, Paris, 1961.*

المصادر والمراجع

- *La Véronne, Chantal de. *Histoire du Maroc à l'époque saadienne (1554-1659)*. Librairie Orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1982.*
- *Lugan, Bernard.* Histoire du Maroc: Des origines à nos jours. *Éditions Perrin, Paris, 2011.*
- *Marçais, Georges.* Tlemcen, ancienne capitale du royaume des Zianides. *Editions du Tell, Blida, 2003.*
- *Marmol Carvajal, Luis del.* Description générale de l'Afrique. *Traduction française, Paris, (s.d.).*

رابعا: الرسائل الجامعية

- بن خروف، عمار، العلاقات بين الجزائر والمغرب الأقصى 1517م-1659م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة دمشق، 1983م.

خامسا: المقالات والدوريات العلمية

- بوجلال، بن يوسف، حملة السعديين على تلمسان سنة 1550م وخلفياتها السياسية، مجلة الحوار الثقافي، مج9، ع2، جامعة مستغانم، 2020م.
- بوزيد، بومدين، الصراع السعدي العثماني حول تلمسان وأثره على الدولة الزيانية (1550م-1554م)، مجلة التاريخ العربي، ع45، 2008م.
- بوجمعة، عمار، الحدود الجزائرية المغربية عبر التاريخ، مجلة البحوث التاريخية، مج7، ع27، 2019م.
- عدة، الشيخ، العلاقات بين الدولة العثمانية ودول المغرب الأقصى ودور الجزائر في أحداث الصراع بينهما، مجلة عصور الجديدة، مج8، ع1، 2018م.

سادسا: الوثائق والأرشيف

- *الأرشيف العثماني برئاسة الوزراء بإسطنبول .(BOA) دفاتر المهمة (Mühimme Defterleri). الدفتر الثالث، المراسلة رقم 214.*
- *رئاسة دائرة الأرشيف العثماني .الجزائر في الوثائق العثمانية (Osmanlı Belgelerinde Cezayir)أنقرة، 2010.*

¬ سابعا: المواقع الإلكترونية

- البوابة الجزائرية للمجلات العلمية:ASJP
https://www.asjp.cerist.dz
- منصة الأطروحات الجامعية الجزائرية:
https://www.theses-algerie.com
- مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية:CRASC
https://www.crasc.dz
- موقع الأرشيف العثماني بإسطنبول:
https://www.devletarsivleri.gov.tr
- موقع أرشيف الإنترنت:
https://archive.org
- موقع Persée للمجلات والدوريات العلمية:
https://www.persee.fr
- موقع Gallica التابع للمكتبة الوطنية الفرنسية:
https://gallica.bnf.fr
- موقع المكتبة الشاملة:
https://shamela.ws

فهرس المحتويات

المقدمة 1

الفصل الأول: التأسيس السياسي والشرعية لدى السعديين وآل عثمان 9

المبحث الأول: أوضاع المغرب الإسلامي عشية التدخل العثماني

- ضعف الدولة الوطاسية وتفكك السلطة المركزية 11
- التوسع الإيبيري وأثره على المغرب الإسلامي 13
- الأوضاع السياسية بالمغرب الأوسط وضعف الدولة الزيانية 15

المبحث الثاني: نشأة الدولة السعدية وبناء الشرعية السياسية 18

- النسب الشريف والدعوة الدينية لدى السعديين 19
- الجهاد ضد البرتغاليين والتوسع السياسي السعدي 21

المبحث الثالث: تثبيت النفوذ العثماني بالمغرب الأوسط 24

- دور الإخوة بربروس في التدخل بالجزائر 24
- ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية 26
- بداية الحذر السعدي من آل عثمان 28

الفصل الثاني: موقف السعديين من النفوذ العثماني بالمغرب الإسلامي 33

المبحث الأول: بداية التوتر بين السعديين والعثمانيين 36

- موقف محمد الشيخ السعدي من التوسع العثماني 37
- قضية تلمسان والصراع حول المناطق الحدودية 40
- المواجهات الأولى بين السعديين والعثمانيين 42

المبحث الثاني: الموقف السعدي من العثمانيين بين الصراع والتوازن السياسي 44

- موقف السعديين من الصراع العثماني الإسباني 45
- محاولات التهدئة والتقارب السياسي 47
- تطور السياسة السعدية تجاه آل عثمان 50

فهرس المحتويات

المبحث الثالث: الصراع حول الشرعية والسيادة بالمغرب الإسلامي 54

•موقف السعديين من الخلافة العثمانية 55

•التنافس الرمزي والدبلوماسي بين السعديين وآل عثمان 57

•أثر الصراع السعدي العثماني على المغرب الإسلامي 60

الفصل الثالث: تطور المواقف السعدية من العثمانيين خلال القرن السابع عشر الميلادي (1603م–1659م)

المبحث الأول: أثر وفاة أحمد المنصور على المواقف السعدية تجاه العثمانيين 67

•الموقف العثماني من ضعف الدولة السعدية 70

•تفكك الدولة السعدية ونهاية التوازن السياسي بالمغرب الإسلامي 73

المبحث الثاني: صعود الزوايا والقوى المحلية بالمغرب الأقصى

•صعود الزاوية الدلائية وتوسع نفوذها السياسي 76

•الزاوية السملالية والصراع على الجنوب المغربي 79

•موقف العثمانيين من القوى المحلية بالمغرب الأقصى 81

المبحث الثالث: نهاية الدولة السعدية وصعود الدولة العلوية 83

•الأزمة السياسية بالمغرب قبيل سقوط الدولة السعدية 83

•مواقف الزوايا والقوى المحلية من النفوذ العثماني 85

•تطور الموقف العثماني تجاه تفتت السلطة المركزية بالمغرب الأقصى 87

الخاتمة 89

الملاحق والجداول 92

قائمة المصادر والمراجع 105

الملخص 112

الملخص

الملخص (بالعربية)

تتناول هذه المذكرة موقف الدولة السعدية من النفوذ العثماني بالمغرب الإسلامي خلال الفترة الممتدة من القرن السادس عشر إلى منتصف القرن السابع عشر الميلادي. هدفت الدراسة إلى تحليل طبيعة العلاقة بين القوتين، وتطور موقف السعديين من العثمانيين عبر ثلاث مراحل رئيسية: الحذر، التوازن، ثم التفكك بعد وفاة أحمد المنصور. وتوصلت الدراسة إلى أن الصراع كان في جوهره تنافساً على الشرعية الدينية والسياسية، وأن الصراع الداخلي بين أبناء المنصور أدى إلى تفكك الدولة السعدية، مما مهد لصعود الدولة العلوية.

الكلمات المفتاحية: السعديون، العثمانيون، المغرب الإسلامي، الشرعية، الصراع.

Abstract (In English)

This dissertation examines the Saadian dynasty's position towards Ottoman influence in the Islamic Maghreb from the 16th to the mid-17th century. The study analyzes the evolution of Saadian-Ottoman relations through three main phases: caution, balance, and disintegration after the death of Ahmed al-Mansur. The findings reveal that the conflict was fundamentally a struggle for religious and political legitimacy, and that internal strife among al-Mansur's sons led to the Saadian state's collapse, paving the way for the 'Alawi dynasty.

Keywords: Saadians, Ottomans, Islamic Maghreb, legitimacy, conflict.

Résumé (En Français)

Ce mémoire examine la position des Saadiens face à l'influence ottomane au Maghreb islamique du XVIe au milieu du XVIIe siècle. L'étude analyse l'évolution des relations saado-ottomanes à travers trois phases principales : la méfiance, l'équilibre, puis la désintégration après la mort d'Ahmed al-Mansur. Les résultats montrent que le conflit était essentiellement une lutte pour la légitimité religieuse et politique, et que les luttes internes entre les fils d'al-Mansur ont conduit à l'effondrement de l'État saadien, ouvrant la voie à la dynastie alaouite.

Mots-clés : Saadiens, Ottomans, Maghreb islamique, légitimité, conflit.

الملخص